مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة محمد

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابق

فوائد سورة محمد

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ ﴾

ابتدأت سورة محمد عليه الصلاة والسلام باللوم والذم والتوبيخ والتهديد للكافرين الذي صدوا عن منهج الله تعالى، واتجهوا إلى ضده من الشرك وعموم الكفر. فقال تعالى ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ** ﴾ فإن الذين جحدوا بآيات وحجج الله سبحانه وتعالى، فأنكروا توحيده عَزَّ وجل، وعبدوا غيره.

وأضافوا إلى ذلك ما شهد الله تعالى به عليهم وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ **وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ أي: صرفوا أنفسهم عن الحق، وكذلك صرفوا الناس عن متابعة دينه وهديه سبحانه وتعالى. فردوا الناس عن دين الله عَزَّ وجل، وعن القرآن العظيم، وعن التصديق بنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء عاقبهم الله تعالى بأن ﴿ **أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ** ﴾ أي: جعل أعمالهم لا يتوصلون بها إلى خير. فأوقع تبارك وتعالى الإضلال على أعمالهم ﴿ **أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ** ﴾ بحيث لا يجنوا منها إلا الخزي والسوء. وشملت دلالتها كذلك أن الله تعالى لم يقبل مما كان ظاهره خير من أعمالهم. فلم يجعل لها ثقل من الأجر والثواب، كإطعامهم الطعام وصلة الأرحام. وكذلك تشمل دلالتها أن الله تعالى أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام، بأن جعل كيدهم وبالاً عليهم.

ومن غزارة السياق أن أُستخدم البيان الكريم لفظ السبيل، وبصيغة المفرد ﴿ **وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ ليتبين أن سبيل الله تعالى منهج واحد، غير مختلف، وغير متعدد. كما أن ﴿ **سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ هو الطريق

الموصل إلى مرضات الله تعالى، فيصرفون الناس عن خير سبيل وطريق يوصلهم إلى النجاة في الدنيا والآخرة. مما يفيد الحذر من صد الناس عن سبيل الله عَزَّ وجل بأي وسيلة كانت.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى تهديده للمشركين، أعقب ذلك ببيان فوز المؤمنين. فأوضح وبين عَزَّ وجل ما أعده للمؤمنين الذين صَدَّقوا وآمنوا بما أنزله تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ فالذين اتصفوا بصفة الإسلام، فجمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، وصدقوا بجميع ما أُنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن العظيم، وغيره من التشريع الذي شملته سنته عليه الصلاة والسلام، فإن لهم عند ربهم ثواباً عظيماً. فهي ثلاثة أمور: الأمر الأولى: الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهم المصدقون بالله تعالى وبكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبكافة ما جاء عن الله تعالى. فالإيمان هو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً صلى الله عليه وسلم. وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والمرسلين واليوم الآخر. ثم يتعاضد الإيمان مع الأمر والصفة الثانية: التي هي: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فجمعوا مع الإيمان العمل بالصالحات، كما قال تعالى ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، من العبادات والأخلاق وغيرها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها.

ودلالة قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قد جمعت ما يجب أن تحمله القلوب والسرائر من الإيمان، وبين الامتثال والانقياد بأعمال الدين. فجمعت بن أعمال البواطن وبين أعمال الجوارح. مما يبين قوة التكامل بين ما تحمله القلوب، وبين ما تصدقه النفوس من الطاعة والامتثال بصالح الأعمال، والانتهاء عن المنكرات.

ثم أفرد سبحانه وتعالى الإيمان بما أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ ﴾ بالرغم من دخوله في عموم الإيمان، ودخوله أيضاً في عمل الصالحات، ولكن على اعتبار أن جميع ما نزل من الوحي على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو حق وصدق، سواء ما كان من السنة، أو من الأخبار، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم. فكل ما نزل من القرآن والسنة يمثل شريعة الله تعالى، من العقائد وتفاصيل العبادات، والأخبار والقصص، وسائر المعاملات، واحكام والأخلاق، والآداب، وعموم الأوامر

والنواهي، فقال تعالى ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ وذلك تنبيها على منزلته ومكانته وشرفه. وهو من باب عطف الخاص على العام. مما يدل على أنه شرط من شروط الإيمان. وكذلك لإفادة أن لا يعارضوه في شيء يذكره لهم، بل يجب تصديقه عليه الصلاة والسلام في جميع ما يقوله لهم مما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي، وعلى رأسه ومقدمته القرآن العظيم.

ثم يذكر تبارك وتعالى كمال التزكية وأوفرها وأشملها لكل ما أنزله عزَّ وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي: فجميع ما أنزلناه على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو الصدق الذي لا ريب ولا شك فيه، وأنه النهج القويم، الذي يهدي إلى الطريق المستقيم. مما يفيد أن من عدل عنه إلى غيره فقد ترك الحق. وبالتالي فإن ما أنزله الله تعالى فهو ناسخ لما قبله، وهو المهيمن على جميع الأديان السماوية السابقة. بما يعني وجوب الاتباع له، لمن أراد السلامة والنجاة في الدنيا والآخرة. أي: فاتبعوا الحق واليقين الذي جاءكم من ربكم تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ الذي لا ريب ولا شك ولا باطل فيه، بل هو الدين الكامل والصافي من كل شائبة ونقص.

ثم يذكر تبارك وتعالى جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نُزِّل على محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عزَّ وجل عن هؤلاء ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فقد اشتمل الجزاء على أمرين عظيمين:

الأول: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي: غفر ذنوبهم سبحانه وتعالى بسبب الإيمان وعمل الصالحات. أي: فمقابل إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، والإيمان بما أُنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، غفر الله تعالى لهم ذنوبهم.

والأمر الثاني: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي: أصلح شأنهم وأمرهم وحالهم، بالتوفيق والتسديد، والمعية والنصرة. وهي نعمة عظيمة وجليلة من الله سبحانه وتعالى. وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أن البال يطلق على القلب. أي: العقل، وما يخطر للمرء من التفكير. وأنه يطلق على الحال والقدر. وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها[١] ليشمل إصلاح حالهم وإصلاح ما يجول في الخواطر من التفكير في الأمور. فيوفقهم ويسددهم، ويجعلهم إلى الصلاح يفكرون ويسعون. وهي نعمة عظيمة من الله تبارك وتعالى.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما يستحقه الكفار من الذم، في الآية الأولى من هذه السورة، وما أعده للمؤمنين الذين عملوا بالصالحات، وآمنوا بما أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ينتقل البيان الكريم بعد ذلك إلى إيضاح السبب والعلة في ذلك الحكم من الجزاء المختلف بين الفريقين. فقال تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٣٥٦-٣٥٧)

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ فإنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات المؤمنين، وأصلحنا شأنهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ ﴾ فإن الذين كفروا اختاروا الباطل عن الحق، والذي هو الإنكار وعدم التصديق بالحق الذي هو دين الله تعالى، فاختاروا الكفر والجحود عن الإيمان والتصديق بالحق، الشأن الذي لا خير ولا فلاح فيه، بل فيه الهلاك والعذاب. بينما المؤمنون اختاروا الحق، فقال تعالى عنهم ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ فالذين آمنوا اتبعوا وامتثلوا للحق الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فالمقصود بالحق هنا الإيمان والاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم، فعملوا بالصالحات، فجمعوا بين الاعتقاد القلبي الصحيح، وبين العمل والتطبيق.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن قوة بيانه في الإيضاح والتعليم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ كذلك يوضح ويجلي سبحانه وتعالى الحقائق بالأمثال التي يضربها للناس، فيقربها للعقول، حتى تستوعبها الأفهام، ويسهل إدراكها على الإنسان، كمثل حال الكافر، وإضلال أعمالهم، ومثل حال المؤمن، وإصلاح بالهم، ليفهم ويدرك الناس فضل الإيمان، وتعاسة أهل الكفر. فيبين ويقرب لهم شأن الحال لكل فريق من المؤمنين ومن الكافرين. بالهيئة التي يدركها ويتصورها عقل الْمُخَاطَبين به، وهم عموم الناس. وهذا من كريم لطفه تبارك وتعالى بالناس، وعظيم إعجاز وسائل تبليغه وتفهيمه لعباده، وتقريب فهم الشيء لهم على أحسن وأجود ما يكون.

فقد بلغ كمال الغاية في البيان والإفصاح والإخبار. بما تنتفي معه حجة الجهل من الإنسان. بل عَيَّن وحدد سبحانه وتعالى أن الْمَعْنِيُ به جنس الإنسان ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ ليفيد تأكيد الاهتمام والعناية بهذا المخلوق، وهو جنس الإنسان عموماً. مما يتطلب من هذا الإنسان أن يشكر إنعام ربه عليه بهذه العناية والاهتمام. فيطيعه، ويهتدي بهديه. ومن دقائق البيان أن تصدر هذا السياق اسم الإشارة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ لإظهار الاهتمام، وإبراز أهميته، وأهمية الالتفات والانتباه إليه.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان وإظهار قوة المؤمنين، ووجوب تصديهم لأهل الكفر بقوة القتال، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فإذا واجهتم الكافرين في ساحات الحرب والمعارك ﴿ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ فأصدقوهم

القتال، بضرب الرقاب منهم، كناية عن قتلهم بالسيوف. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ أي: حتى إذا بلغ القتل فيهم مبلغ الإضعاف لهم، بكثرة المقتولين منهم، فانكسرت شوكتهم ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ فاحكموا قيود الأسرى التي تقيدونهم بها، حتى لا ينفلتوا، وحتى تنكسر نفوسهم، ثم خَيَّر الحكم فيهم والتعامل معهم بأحد خيارين ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ ﴾ بفك أسراهم امتنانا عليهم، من غير عوض ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ واما يدفعوا مقابل فك الأسير عوضاً ترضونه، وتطلبونه منهم. فيفدوا أنفسهم بالمال ونحوه. فاستمروا على ذلك ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا ﴾ أي: أثقالها، بمعنى تنتهي وتتوقف الحرب، فيكون الحال في وضع المسالمة والمهادنة. بما يفيد أنه إذا توقفت الحرب، فلا أسر ولا قتل. وبما يفيد تطبيق موجبات السلم طالما وضعت الحرب قوتها.

ويلاحظ ورود التخيير بأسلوب التعميم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ سواء كان الرسول على رأس الغزوة، أو ما يكون من السرايا التي يقودها أحد الصحابة التي أُكلت له فيها القيادة، وكذلك لتكون قاعدة عامة في تفويض التكليف للقائد الذي له زمام الأمر. وهذا من دقائق التوجيه في إعطاء المسؤول عن تنفيذ الأمر والشأن قدراً من التفويض يتعامل به بحسب المقتضيات التي يواجهها. وهو من دقائق أعمال القيادة، وعموم أعمال الرئاسة في جوانب الإدارة المختلفة. فقد قعَّد هذا التوجيه الكريم لمنهجية التفويض كيف تكون. وأهميتها في تنفيذ الأمر بحسب مقتضياته وتجددها واختلافها وتباينها.

وقد حدد الأمر والشأن لانطلاق القتال: وهو ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ فإذا تمت المواجهة، فعليكم بالقتل، والشدة في الحرب، حتى يُنهك العدو منذ بداية المعركة. ثم انتقل التوجيه الكريم إلى بيان الغاية التي ينتهي فيها كمال شدة القتال، وهي: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ أي: حتى إذا بلغتم الغاية والمراد بالقتل فيهم، فثقلت عليهم الحرب من شدة وكثرة قتلاهم، فيكون التعامل مع من تم أسرهم هو ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾ فالربط المحكم لهم، بما يفيد فلا هوادة معهم. وأما حال الفداء، فقد ترك للمسؤول تحديد قدر الفداء، بما يناسب الوضع والحال والزمن.

وبعد أن وضع البيان الكريم الخيارات التي تم تفويض القائد فيها ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ ينتقل التوجيه الكريم في تدرج وتتابع إلى تحديد نهاية الأمر في جميع ما سبق هو ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا ﴾ فبعد ذلك تتوقفون عن ذلك القتل. فهي دقة في التوجيه، ودقة في البيان، ليدل ذلك جزماً بأنه كلام رب العالمين. فلا يمكن أن يكون من لسان وعقل بشري.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال قدرته عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ ﴾ فلو أراد الله سبحانه وتعالى أن يهلك الكافرين وينصر المؤمنين نصراً نهائياً، وبدون قتال لفعل ذلك سبحانه وتعالى، وذلك لكمال قدرته، وقوة سلطانه عَزَّ وجل ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ ﴾ ولكن لحكمته التي أرادها سبحانه وتعالى وهي ﴿ لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ ﴾ ليختبر بعظكم ببعض. فهناك اختبار لكلا الطرفين، فمن ذلك اختبار الكفار بالمؤمنين، فهل يتعظوا؟ ويؤمنون، أو البقاء على كفرهم، فلا يتعظون بما يرون من انتصار المسلمين في بدر على قلة عددهم، وانهزام المشركين على كثرة عددهم. وكذلك جعل عقوبة الكافرين على أيدي المؤمنين. وفي نفس الوقت ابتلاء للمؤمنين وتمحيص لإيمانهم، أيصبرون، ويجاهدون، ويدفعون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله أو يقصرون في ذلك، وليكون موتاهم شهداء، وأحياءهم أعزاء. وينصر سبحانه وتعالى دينه بالمؤمنين، وليكون أثراً، ودرساً وموعظة لغيرهم. فهناك حِكم كثيرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى ميزة ومنزلة من قُتِل في سبيله عَزَّ وجل، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فإن الذين قُتِلُوا وفارقوا الدنيا وأهلها، وما يحبون فيها فإن الله تبارك وتعالى سيوفيهم ثوابهم كاملاً غير منقوص. فإن أجر من قُتِل في سبيل الله تعالى ثابت عند الله عَزَّ وجل غير ضائع. فلن يُبطل ثواب موتهم في سبيل ربهم سبحانه وتعالى، فسوف ينالون ثوابهم كاملاً غير منقوص. وفي هذا بيان لمنزلة الشهداء، وتشجيع للمؤمنين عند ملاقاة العدو، وتطمين لأهليهم ومحبيهم. فهو كرم ووفاء من الله تعالى، لمن قُتِل في سبله.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بثواب المجاهدين في سبيله ممن لم يُقتلوا، فيقول عَزَّ وجل ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ فسيتحقق لهم ما يسعدهم من أمور الصلاح والتوفيق،: فالأول: ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ ﴾ سيوفقهم إلى طريق الحق والخير، الموصل إلى الجنة، والثاني: ﴿ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ أي: يصلح خواطرهم ونفوسهم وشأنهم وأمرهم وحالهم، بالتوفيق والتسديد، والمعية والنصرة. وحسن الثواب. ويجمع إصلاح البال إصلاح الأمور كلها، ليشمل إصلاح ما يجول في الخواطر من التفكير في الأمور. فيوفقهم ويسددهم، ويجعل تفكيرهم وخواطرهم وسعيهم فيما هو صالح لهم في دينهم ودنياهم. وهي نعمة عظيمة وجليلة من الله سبحانه وتعالى.

والأمر الثالث: ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ وفي الآخرة يدخلهم الجنة التي ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ التي عَرَّفَها وبينها حتى علموها وعرفوها من شدة وكثرة ما وصفها سبحانه وتعالى لهم. فقد أوضح وبين تبارك

وتعالى لهم نعيمها وأنهارها وقصورها، وفواكهها، وما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين. ولا نصب ولا تعب، ولا موت، ولا خروج منها، ولا نهاية لها. فهي حياة خالدة أبدية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ ﴾

يوجه الله تعالى بياناً للمؤمنين بأسلوب وطريق النداء، لحثهم على الانتباه وإرعاء السمع، وأخذ التوجيه بعناية واهتمام. فقال تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وعملوا بدينه وتفاصيل شريعته، فإن تنصروا دين الله تعالى، وتُعزُّوه بوسائل النصر والعزة، فإنه مقابل ذلك ينصركم الله تعالى، ويمكنكم في الأرض.

وقد بدأ التوجيه الكريم بمناداة المؤمنين بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والتي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من وجوب الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب نداءاته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ومن دقائق البيان أن جعل وعَيَّنَ سبحانه نُصْرَةِ الدين في نصرته ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فالمقصود بنصر الله تعالى، هو نُصْرَة دينه، بما يفيد أن دين الله تعالى بلغ هذه المنزلة والمكانة والرفعة. بأن دين الله تعالى يمثل مقام ربكم جَلَّ في علاه. ثم جعل ذلك شرطاً لنصرتهم بحرف الشرط ﴿إِن﴾ ليفيد شدة الشرط، حتى أصبح أصلاً لنصرتكم. ليتبين من ذلك منزلة دين الله تعالى، ومقام نصرته، ومقام من ينصره، وفق شريعته.

وجعل مقابل ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ تحقيق النصرة لهم أمام أعداء الدين ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ ويحقق لكم به الوسيلة التي تنتصرون بها، وهي ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ مما يبين أهمية وسيلة الثبات في النصر، وأن النصر لا يكون إلا بثبوت الأقدام، وثبوت الأقدام بثبوت القلوب. وقد أورد سبحانه وتعالى التثبيت للقلوب بتثبيت الأقدام ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ لأن تثبيت الأقدام يستجمع تثبيت أصولها، وهو تثبيت قلوب المؤمنين، فيربط على قلوبهم بالصبر، والأمل، والطمأنينة، والثبات والجلادة. فتصبر أجسامهم على ما تلاقيه من الإصابات، ونحو ذلك. فإن الله تعالى هو الذي يربط على قلوبهم فتثبت أقدامهم حين ملاقاة الأعداء، ويعينهم عَزَّ وجل بمعيته التي تشتد بها أقدامهم على الثبات وعدم الخوف، والقهقرة والتولي، مما يزداد العدو بثباتهم رهبة وذُلاً وخوفاً. فإن لله تعالى كمال السلطة على قلوبكم بتثبيتها، وانتزاع الخوف منها. مما يفيد أنه مهما قوية الوسائل فلا نصر إلا بثبات الأقدام أمام العدو، ولا ثبات للأقدام إلا بثبات القلوب. فأعطى سبحانه وتعالى بهذا قاعدة عظيمة. وهي أن ثبات القلوب من الله تعالى، وأن ثبات الأقدام أمام العدو وعدم الهروب هو بقوة الله تعالى، فاطلبوا ذلك بالطاعة لربكم، ونصرة دينه.

وهذا وعد من القوي العزيز، الذي له عظيم السلطان والعزة والقوة، فإذا وعد أوفى بالوعد سبحانه وتعالى، وتحقق الخير والعزة والكرامة. وبالتالي مَن أراد مِن الأفراد أو الأمة أن ينتصروا فعليهم أولاً بنصرة دين الله تعالى في أنفسهم، بالنصح له، وتطبيقه، والامتثال به، ليكون الفرد ممثلاً صادقاً في دينه يمشي على الأرض، وأن يعز دينه بكل ما يستطيع، وفق منهج الله تعالى. فالأمة إذا نصرت وأعزت دين الله تعالى أعزها الله تبارك وتعالى، ومكنها من الثبات، ومن دحر العدو.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بخسارة الكافرين التي يحققها فيهم سبحانه وتعالى بقوة سلطانه وقهره وعزته، بل يُثبت تحققها لهم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فأما عدوكم من الكافرين فالهلاك والتعاسة لهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ فالهلاك والخذلان، والانتكاس والخزي لهم. وكذلك ضلالة أعمالهم ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي: جعل أعمالهم من الكيد والتخطيط والتدبير في ضلال، فلا يصلون بها إلى خير، بل تنعكس عليهم، بأن تكون على غير هدى وصواب، بل معاكسة ومضادة للصواب والصحيح من التدبير، فيقع عليهم من الأمر والشأن بعكس ما كانوا يدبرون ويخططون وينظمون. مما يفيد تفظيع انتكاستهم وشأنهم وحالهم مع المؤمنين. وفي هذا تحذير من الله تعالى للكافرين في كل مكان وزمان من أن ينالوا من دينه ومن المؤمنين شيئاً من الأذى أو السوء. فإن الله تعالى لهم بالمرصاد. كما فيه تطمين للمؤمنين، بأن لا يتأثروا بإمكانات العدو، وكثرتهم، فإن الله تعالى مخزيهم، وكاسر لشوكتهم.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى سبب ذلك الانتكاس والإضلال للكافرين عن مرادهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فإن ذلك الانتكاس والإضلال الذي أُصِيبُوا به هو بسبب كرههم لما أنزل الله تعالى. فيشمل ﴿ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ جميع ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقدمة ذلك القرآن العظيم. فكانت نتيجة هذا البغض وهذه الكراهة لما أنزله رب العالمين أن أسقط وأهلك أعمالهم ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي: جعلهم لا يتوصلون بأعمالهم إلى خير. فجعلها باطلة وفاسدة، ولا نفع لهم بها. فكل عمل يرجون من ورائه النفع في الدنيا يصيبه الفشل والضياع. لأنهم لا رجاء لهم في الآخرة، لعدم إيمانهم بالبعث والجزاء. فيكون المقصود بأعمالهم الدنيوية، التي يقصدون بها الانتفاع وتحقيق المصالح الدنيوية. وكذلك شملت دلالتها أن الله تعالى لم يقبل منهم شيئاً من الخير، كإطعامهم الطعام وصلة الأرحام. وكذلك تشمل دلالتها أن الله تعالى أبطل كل عمل عملوه، فلا يتوصلون به إلى خير، فجعل تنظيمهم وتخطيطهم، وكيدهم ومكرهم للنبي عليه الصلاة والسلام، وللمؤمنين وبالاً عليهم. فهي دلالة واسعة المعنى، لتشمل عدم التوفيق، وعدم القبول.

وقد أشار الله تعالى لأعمالهم باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لتعظيم الخسارة، وتعظيم سبب الخسارة، وتهويلها، إمعاناً في حجم ما خسروه من خسارة لا يمكن لهم تعويضها إن لم يتداركوا أمرهم في حياتهم الدنيا بالإسلام والاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة. مما يفيد التحذير والترهيب للكافرين مما هم فيه من الكفر، وما سيتبع ذلك من عظيم الخسارة الفادحة في الدنيا والآخرة.

ثم يلفت سبحانه وتعالى أفهام وعقول المشركين وغيرهم من الصادين عن دينه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما يجب أن يعرفوه من حقائق الأمم السابقة التي كفرت بالمرسلين عليهم السلام ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فأتوا ومروا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبرون بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. فبدأ الخطاب البياني بسؤال يحمل الاستنكار لهم عن عدم تعقلهم واسترشادهم واتعاظهم بغيرهم مما يعرفون من أحوال الأمم السابقة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. وهو سؤال يقرر لهم به أنهم قد سافروا من خلال رحلتهم التي أثبتها الله تعالى في سورة قريش، وهي رحلة الشتاء والصيف. فَيُورِدُ اللهُ تبارك وتعالى سؤالاً تقريرياً بما حصل لهم من النظر والمرور بديار أهل العذاب، وكذلك هو استنكار ولوم وتوبيخ لهم، إذ يستنكر به على المشركين والصادين والمنكرين والكافرين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يتعظوا بما رأوا.

وهو كذلك بلاغ وإرشاد للصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم، فيكون سيرهم لرؤية الدليل وما يتعظوا به من الآيات والحجج والبراهين ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم يحصل منهم السير في الأرض، وهو سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير في نفس الوقت، فهو توبيخ وتقريع لعدم استفادتهم مما رأوا من أثار الهالكين بالعذاب، وتقرير ببقاء آثار الهالكين الذين أصابهم العذاب من الله تعالى. فاحذروا من تكذيبكم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيصيبكم الله تعالى بمثل ما أصاب المكذبين من قبل.

فيثير البيان الكريم جانب التأمل والتدبر، والاتعاظ بما يرى الإنسان من آثار، وأن في إبقائها آية من آيات الله تعالى، للاتعاظ بها. ألم يحصل منهم السير في الأرض ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير.

وقد تضمن التوجيه الكريم لفت الانتباه لحاسة النظر وأهميتها، في التبصر والتفكر والاستدلال على الحق ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ فجملة ﴿فَيَنظُرُوا

﴿كَيْفَ﴾ تشد الانتباه، وتلفت حواس المتلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في حال من سبق من الأمم المكذبة، ليكتشفوا ما هم فيه من الباطل، وما سيكون من حالهم إن لم يتعظوا بغيرهم من الأمم السابقة. وتفيد دلالة ﴿كَيْفَ﴾ استثارة الذهن نحو تقليب الفكر في الحوادث، وما سينتج عنه، وما ينكشف له من الحقائق، وما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والحسد والبغض الذي جعلهم ينكرون الحق حسداً وتكبراً على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ودلالة ﴿كَيْفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الإنسان ما يحيط بهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالفاسد من القول والبهتان، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، يتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأن ذلك وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

وقد زادت كلمة ﴿كَيْفَ﴾ من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَبين، بأن يتأملوا ويُمْعِنوا النظر في حال الأمم التي سبقتهم، ليعرفوا مخاطر التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَبين بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل عليه الحق، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يدعوهم إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿كَيْفَ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه. وهي تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿كَيْفَ﴾ فقال تعالى ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر. مما يبين عظمة أسلوب القرآن، ومقاصد ألفاظه الكريمة العظيمة.

فيلفت السياق انتباههم إلى أن يتبصروا آخر أمر الكافرين وشأنهم الذي انتهى بالعذاب والتدمير لجميع ما بذلوا فيه من الجهد، فإن آثار العذاب باقية في ديارهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ والتدمير هو

الإهلاك لهم، فقد أهلكهم واستأصلهم ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ ولهؤلاء الكافرين وغيرهم مثل ما سبق لتلك الأمم الكافرة. بما يفيد: اتعظوا بما حل بمن كان قبلكم، بالنظر والتأمل فيهم، وفي حالكم، ودرجة التشابه بينكم وبينهم، في العناد، والشرك، ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم التصديق بالآيات والحجج. فتوبوا إلى ربكم سبحانه وتعالى. مما يفيد رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يعظهم ويذكرهم بكل ما يحفزهم للطاعة والامتثال لربهم، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى بمعيته ونصرته للمؤمنين، وأن الكافرين معزولون من أي مُعينٍ وناصرٍ لهم، فقال جَلَّ جلاله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ فذلك الذي فعلناه ونفعله من نصر المؤمنين وإضلال الكافرين بسبب أن ربكم سبحانه وتعالى ولي للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والمولى هو الناصر والسند، الذي يتولى شأن من يتولاهم، وهم المؤمنين، إذ أنه سبحانه وتعالى سند لهم بالنصر والمعية والتوفيق والتسديد، بينما الذين كفروا لا ناصر لهم، فهم معزولون من الناصر، بما يفيد أن طريقهم هو الخذلان والانكسار، وعدم الانتصار. وقد أعاد الله تبارك وتعالى اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ للمزيد من التعظيم لشأن المؤمنين ومعيته ونصرته لهم، وإضلال أعمال الكافرين وإفسادها عليهم.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى حال المؤمنين ومعية ربهم لهم، وحال الكافرين من الضياع، وأنه لا ناصر ولا معين لهم، يخبر الله تعالى بعد ذلك بجزاء المؤمنين، وجزاء الكافرين في الآخرة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ فإن الله تعالى بكرمه وجوده يُدخل عباده الذين اتصفوا بالإيمان وعمل الصالحات يدخلهم جناته في الآخرة، فالصفة الأولى لهم، هي: الإيمان ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: المصدقين بكل ما جاء عن الله تعالى، وعلى رأسها التصديق بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم. والصفة الثانية ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهو العمل بدين الله تعالى، والذي زكاه رب العالمين بأن مضمونه كله صالحات ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ سواء فيما يتعلق بعلاقة العبد بربه، من الطاعات والعبادات، أو ما يتعلق بعلاقة العبد بغيره من العباد على جميع مستوياتهم وأنواعهم. مما يفيد التلازم بين الإيمان، وبين عمل الصالحات، الذي يعني العمل بطاعته سبحانه وتعالى وفق ما شرعه لعباده من التشريع، فهما أمران متلازمان لإدخالهم الجنة. فمن آمن وعمل بدين الله تعالى، وابتعد عن المنكرات، فإن الله تعالى يدخلهم ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فالجنات

هي بساتين تجري من خلالها الأنهار، في جريان لا ينقطع، ولا يضعف. إذ تتخللها أنهارها في جريان من غير انقطاع. فتجري الأنهار من خلالها، ومن أسافلها، فتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها. وأما حياتها فهي خلود دائم لا ينقطع ولا ينتهي ولا يزول.

ثم يتناول البيان الكريم حال الكافرين، فيقول عزَّ وجل ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ** ﴾ وأن الذين كفروا يتمتعون وينتفعون بمتاع الدنيا كحال الحيوان، في مشابهة لهم بالأنعام التي لا تعقل، ولا تستفيد مما تتنعم به إلا لحياتها الدنيا. وأن همتهم قاصرة كالأنعام على بطونها وفروجها، فهم ساهون ولاهون عن الآخرة الدائم نعيمها للمؤمنين، والدائم عذابها للكافرين. ﴿ **وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ** ﴾ والنار هي المقام الدائم لهم، والذي يستقرون فيه استقراراً لا خروج لهم منه. وفي هذا أعظم بلاغ وإنذار للكافرين، وترغيب لهم في الإيمان، وحث لهم على ترك عنادهم، والدخول في الإسلام. وهذا من رحمة الله تعالى أن وعظهم بالحقائق، دفعاً لهم للدخول في دينه عزَّ وجل. فالحمد والشكر لله تعالى على ما أنعم وهدى.

﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم (١٤) مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ (١٥) وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ (١٧) فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ (١٨)** ﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى ببيانه العظيم عن نعيم عاقبة المؤمنين، وعن سوء عاقبة الكافرين، يُجمِلُ القول البياني في الوعظ والتحذير من خلال كشف مصير العديد من الأمم الظالمة التي أهلكها بالرغم من أنها كانت أقوى وأشد من أهل مكة. فيقول جلَّ شأنه ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ** ﴾ فكم من قرية من قرى المكذبين، كانت أشد قوة من قريتك التي أخرجتك، فهاجرتَ منها إلى المدينة، فكانت تلك القرى التي أهلكناها أقوى وأشد في أفعالهم، وما كان من آثارهم في الأرض، بما شيدوا وبنوا من البناء والسدود، ونحت الجبال، وإقامة المزارع، والبساتين والقلاع. وانتهى شأنهم

بالتدمير على ما كان عندهم من القوة والتمكين. فلم تنفعهم قوتهم. بما يفيد عليكم أيها المشركون المعاندون لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، عليكم بالاتعاظ ممن كان قبلك، مع ما كانوا عليه من القوة التي تفوق قوتكم، ومع هذا أهلكناهم ودمرناهم. فانتبهوا واتعظوا قبل أن يحل عليكم ما تستحقون، وكذلك عليكم بالاتعاظ من أن الجميع راحل عن الدنيا كما مضى مَثَلُ من كان قبلكم من الأمم التي مكناهم من عمارة الأرض أكثر مما أنتم عليه. فاعتبروا وأطيعوا خيراً لكم وأحسن.

فاستهل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بدلالة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ التي تفيد التكثير والتهويل، والتي تعطي دلالة الكثرة، وضخامة عدد القرى التي أهلكها اللهُ سبحانه وتعالى بسبب ظلمها ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وهي تبين تعظيم كثرة العدد الذي تناهى في كثرته، فمنهم من ذكرهم الله تعالى كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وفرعون، ومنهم من لم يذكرهم عَزَّ وجل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ فما أكثر القرى التي هي أشد قوة وبأساً وقدرة من قريتك مكة ﴿ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ التي أخرجك أهلها منها، فهاجرت إلى المدينة بسبب شدة عداوتهم لك ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ فقد دمرناهم بأشد أنواع التدمير والهلاك، حتى لم يبق منهم شيء إلا آثار ديارهم. وهي حقيقة المآل الذي آل إليه أمرها، وشأن أهلها الذين أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم للمرسلين، بما يفيد التحذير من أن يكون مصيركم كمصيرهم، وهو إنذار مبين للمكذبين إلى يوم الدين. ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ ولم يجدوا من ينصرهم ويحول بينهم وبين إهلاكنا لهم. بما يوضح أننا إذا أردنا إهلاك أمة بكاملها فلا يوجد ما يمتنعون به عن مراد ربهم بهم من العذاب والهلاك. وهذا تهديد ووعيد شديد لأهل مكة، ودعوة لهم بأن يستسلموا لرسوله صلى الله عليه وسلم ويطيعوه.

ومن دقائق السياق الكريم أن نسب القرية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ ليظهر بذلك قوة الارتباط بين مكة وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها تشكل له الانتماء، مع قوة المعرفة والعلاقة بينه وبين أهلها، ونسب الإخراج أيضاً للقرية ﴿ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ ليظهر من ذلك كثرة المشركين فيها، وشدة العداء والأذى حتى تمكنوا منها. وكأن القرية هي التي أخرجته صلى الله عليه وسلم، وذلك لإظهار تمكنهم من مكة. وهو بيان لقوة الأذى وقوة أثر ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من ألم وشدة مفارقة قريته مكة، وتحاملهم جميعاً عليه، وكأنما الحال أن القرية هي التي أخرجته. ليتبين قوة وشدة أثر المفارقة، والمباعدة، التي تعني لولا أن أخرجوه منها صلى الله عليه وسلم لما خرج منها. وليتبين شدة معاناة الرسول عليه الصلاة والسلام فيما وجده من أجل تبليغ رسالة الله تعالى، فقد تكبد الكثير والكثير عليه الصلاة والسلام،

ولكنه صبر على جميع ما واجه من أصناف الأذى. ليعطي أمته القدوة المباركة الصابرة تجاه ما يجدون ويواجهون من أجل دينهم. فهو وصف غاية في معانيه ومقاصده العظيمة.

ثم يخبر ويوجه سبحانه وتعالى عباده بأسلوب السؤال الاستفهامي الذي يثير التأمل والتفكر لتحصيل التعقل، واختيار الصواب بالحجة والبرهان ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ هل من كان على برهان واضح، وحجة وبصيرة من ربه، كمن لا حجة ولا برهان على شركه وكفره، فيعادي ويكذب بمن هو على بينة، ويكفر بالآيات والبراهين، ويؤمن بما لا بينة عليه. فيصدق بمن هو على جهل وضلال ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أفمن كان على برهان واضح، وحجة وبصيرة من ربه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المؤمنين ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ كمن حَسَّن وزيَّن له الشيطان قبيح أعماله الرديئة، واتبع ما تهواه نفسه من الشهوات المؤدية إلى معصية الله سبحانه وتعالى. فهو سؤال مفاضلة وتأمل، لاستثارة العقول نحو التأمل والتفكر.

فبدأت الآية الكريمة بالاستفهام ﴿ أَفَمَن ﴾ الذي يقرر به السياق الحقيقة بالبرهان والدليل، والاختيار الذي يتفق عليه العقلاء من الناس فيؤمنوا به، إلا من كان له مآرب ومسالك من الجحود والنفاق، ومحبة تقديم الدنيا وزخرفها على الآخرة ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أفمن كان على حجة وبرهان ونور من ربه تبارك وتعالى، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ على دليل وحجة، بما معه من البراهين من ربه تبارك وتعالى، وهو الوحي والقرآن الكريم ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ كمن زَيَّنَ له الشيطانُ وهواه أعماله السيئة.

وقد ورد سياق ذلك بدقائق من البيان الجليل العظيم. فورد بأسلوب الاستفهام الذي يستنكر من يرى الحسن في العمل السيء، ويرى السيء الواضح إساءته أنه هو الحسن. وهو أيضاً سؤال يقرر به حقيقة نوع من الناس، يرون سوء العمل حسناً. كما ورد البيان الكريم من دون ذكر الفاعل للتزيين ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ ﴾ فلم يذكر من قام بالتزين، الذي تَبِعَهُ وقَبِلَهُ هذا الإنسان، ليشمل هوى النفس، وهوى الشهوات، وهوى الشبهات، ومسايرة الكبراء الفاسقين، ومطاوعة أهل الفساد، والغرور بشهوات الدنيا، وكذلك تزيين الشيطان له، فَقَبِلَ التزيين، وجذبه عن الحق الواضح المبين. فمن دقائق البيان أن استوعب جميع دواعي التزيين على اختلافها، واختلاف مقاصدها.

وقد سَمَّى اللهُ تبارك وتعالى ذلك العمل بالسوء ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مما يدل على ظهور السوء وبيانه وتَجَلِّيه فيما كان يعمله من الشرك والكفر وغيرها من المعاصي، بل ونسب العمل إلى فاعله، ولم ينسبه لمن زينه له ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ لأنه هو المسؤول عن نفسه، وعن الاختيار، وعن الأخذ والاتجاه، بما حباه الله تعالى من العقل ومن الإرادة. وهذا من بلاغة تحرير البيان، وبلوغه مبلغ الإعجاز. ثم خص الهوى بالذكر والتنصيص ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ أي: سايروا شهواتهم، وميولهم التي لا ترتكز على الحقائق من الأدلة والبراهين، وترجيح النافع على الباطل. لأن الهوى: هو الميل للشيء بناء على رغبة النفس وقوة المثير لها، من غير الاعتماد والنظر إلى خيره وشره، أو ما يعقبه من المفاسد، ولا على ضوابط الشريعة والدين. مما يبين خطورة اتباع الهوى الذي لا يحسب للعواقب حساباتها.

وهذا تحليل وإرشاد إلى أسباب كفر الكافرين، وإصرارهم على كفرهم، وبالمقابل فإن المؤمنين قاوموا أهواءهم، ودافعوا وجاهدوا تزيين سوء العمل، فقدموا الحق على الباطل، ولزموا الطريق المستقيم، ولم يتبعوا شهواتهم، ومداخل الشيطان. مما يبين حاجة وافتقار الإنسان إلى التمعن والتفكر في مساره، وفيما جاء من الحق، وألا يطاوع هواه وشهواته وغيره من المنحرفين، فإن ذلك ينحرف به إلى الهاوية، وسوء الخاتمة. ونستجير ونعوذ بالله تعالى من ذلك.

وبعد أن ذكر الله تعالى المفارقات بين من كان على برهان واضح، وحجة وبصيرة من ربه، ومن لا حجة ولا برهان على شركه وكفره، فيعادي ويكذب بمن هو على بينة، ويكفر بالآيات والبراهين، يذكر بعد ذلك سبحانه وتعالى ما أعده للمتقين من الجزاء المقيم، وما أعده للكافرين من عذاب النار. وابتدأت الآية الكريمة بالْمَثَل الذي يقرب المعنى والصورة في الذهن، فيكون أقوى في التصور والبيان، فقال تبارك وتعالى ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ فصفة الجنة التي وعد الله تعالى بها المتقين ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ﴾ أي: أن الأنهار سارحة في أرجائها وجوانبها، وتم ذكرها بصورة الجمع، الذي يفيد الكثرة والتعدد، ثم ذكر جَلَّ جلاله أنواعها: فأحدها: ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ أي: أن صفة هذه المياه التي تجري بها الأنهار ﴿مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ لم تتغير ريحته، ولا طعمه، فنفى عنه التحول والتغير عن حقيقته الأصلية، بما يثبت البقاء على حالته التي خلقه اللهُ

تعالى عليها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: غير متغير، وعن قتادة رحمه الله تعالى: غير منتن[1] فهو الصافي الذي لا كدر فيه. كما وردت بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها، فأينما توجهت في الجنة، وجدتها تجري أمام أهلها.

والنوع الثاني من الأنهار: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وأنهار كثيرة جارية من اللبن الذي لم يتغير طعمه، لأن الله تعالى خلقه ابتداء على هيئته الأصلية، وليس كاللبن الذي يكون من البهائم، كالأغنام والإبل، والبقر، فيتغير طعمه بمرور الوقت. فأما ألبان الجنة فهي على أصلها باقية. كما وردت أنهارها أيضاً بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها، فأينما توجه أهل الجنة وجدوها. والنوع الثالث: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وأنهار أخرى من خمر ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يستطيبها ويتلذذ ويتمتع بها الشاربون منها، مما يدل على أنها ليست كخمر الدنيا، تذهب بالعقول، فلا يدرك لها لذة، ففي إثبات لذتها، إثبات لطيبها، وكمال الشعور بطعمها اللذيذ. وكذلك وردت أنهارها بصيغة الجمع، للدلالة على كثرتها. والنوع الرابع: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وأنهار أخرى من العسل، الذي خلقه الله تعالى صافياً من كل شيء يشوبه، أو يعكر على الشارب شربه، لأن الله تعالى خلقه كما أراد ﴿عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ فليس كعسل النحل فيحتاج إلى تصفية، بل خلقه سبحانه وتعالى صافياً، حتى يستمتع الشارب له بشربه. وقد ورد ذكر الأنهار للعسل بصيغة الجمع كذلك، ليدل على كثرتها ووفرتها في جميع أنحاء الجنة، فأينما اتجه أصحاب الجنة وجدوا تلك الأنهار بين أيديهم، فلا مشقة في البحث عنها لتحصيلها، بل تجري بين أيديهم.

ومن دقائق البيان أن أعطى كل موصوف بما يناسبه من الحال التي يتأثر بها في الدنيا. فنفى عن ماء الجنة ما يكون في ماء الدنيا من التغيير في الطعم والرائحة، فقال تعالى ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ لم تتغير ريحته، ولا طعمه، فنفى عنه التحول والتغير عن حقيقته الأصلية، بما يثبت البقاء على حالته الأصلية. ونفى عن اللبن تغير الطعم لطول المدة، ومكوثه في إيناء الحفظ، فقال تعالى ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بما يُثبت البقاء على أصله التي خلقها الله تعالى عليه. بينما الخمر أثبت لها بقاء لذتها بما ينفي عنها كل سوء، كما هي خمور الدنيا. فقال تعالى ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لينفي عنها مشابهة خمور الدنيا، فتذهب بالعقول. وأثبت للعسل الصفاء ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ فنفى عنه ما قد يختلط به من بقايا الشمع، وبقايا النحل، وعملية التصفية. فأثبت لكل نوع الوصف الذي يناسبه، إما بنفي التغيير، أو بإثبات حالته من الصفاء واللذة.

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢٠٠)

فوصف الماء واللبن بنفي ما يحصل له في الدنيا، وأما الخمر والعسل فبالإثبات للذته وصفائه. وهذا من دقائق الوصف الذي لا يمكن أن يكون إلا من العليم الرحمن الرحيم.

وإضافة إلى تلك المشروبات ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فيذكر سبحانه وتعالى أن من نعيم الجنة وخيراتها التي لأهلها أن فيها جميع أنواع الثمار ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: أن فيها من جميع أنواع الثمار. وقد ذكر تعالى الناتج من الأشجار، وهي الثمار، دون ذكره سبحانه وتعالى للأشجار، لأن الثمار دلالة على الأشجار، فمن بلاغة الكلام في الوصف أن ترك ما لا حاجة لذكره، فيغني عنه غيره، ولتدل النتيجة على الأصل.

ثم من دقائق الوصف قوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: من جميع الأصناف، بما يفيد دلالة التنوع مع الكثرة، واحتواء جميع الثمار، من غير نقص، ولا قلة. وبما يدل على تنوع الصنف الواحد. وهذا يدل على عظمة الخالق تبارك وتعالى، وعلى كرمه، وجوده وإحسانه، وتدل على دقة خلقه وعظيم قدرته عَزَّ وجل. ولم يربط سبحانه وتعالى وجودها بمواسم معينة ومحددة، ليدل على توافرها في كل وقت وحين.

ومن مزيد الإنعام والإكرام من الله تعالى لأهل الجنة أن لهم من ربهم المغفرة الكاملة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي: لهم مغفرة كاملة تامة لجميع ما كان من ذنوبهم، فلا يعاقبون أبداً، بما يفيد الستر والمحو بالتجاوز عن ذنوبهم، وبالتالي انتفاء الأذى والحزن والهم عنهم، ونفي كل ما ينقص عليهم نعيمها. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿ مِّن ﴾ زائدة، للتوكيد. وتنكير مغفرة ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم[١] وهي نعمة عظيمة يُحسن الله تعالى بها على عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى حال المؤمنين وأن ثوابهم الجنة التي كلها نعيم مقيم، يقارنهم بحال من هو في النار خالداً فيها أبداً. فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ فأي حال أفضل؟ أولئك المؤمنين الذين مآلهم الجنة، أو ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ خلود لا خروج منه، وهو جزاء الكافرين، ومع هذا الخلود فإن الماء الذي يشربونه شديد الغليان ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا ﴾ فهو ماء موصوف بأنه ﴿ مَآءً حَمِيمًا ﴾ أي: شديد الحرارة، فيغلي في بطونهم. فمن شدة غليانه أنه ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ فلفرط

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤/٥)

شدة حرارته قَطَّع ما في بطونهم من الأمعاء التي يسيل ويجري فيها عند شربهم له. فهو عذاب شديد، نسأل الله تعالى أن يقينا عذاب النار، وأن يدخلنا الجنة بسلام، آمنين.

وفي هذا البيان موعظة من الله تعالى للعباد، وبيان لمسار المؤمنين، ومسار الكافرين، ليتعظ به كل العباد، وأن يتحمل كل أحد مسؤولية نفسه، وبالتالي فإن الله تعالى لم يظلم عباده بهذا البيان وغيره من المواعظ والترهيب والترغيب المبثوث في القرآن الكريم، وما تضمنته سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل يختار ما يريد بإرادته، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وكما قال تعالى في سورة المدثر ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

ثم بعد هذه الموعظة العظيمة، يذكر تبارك وتعالى أنه بالرغم من هذا البيان التحذيري، وغيره من المواعظ إلا أن هناك من يستمع لكل ما تقول أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم إذا خرج من عندك استهزأ بما سمع. فقال عزَّ وجل ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ يبين الله تعالى حال ما كان يقوم به ويعمله بعض المشركين ﴿ وَمِنۡهُم ﴾ أي: فئة من هؤلاء، وهم المنافقون ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ فإنهم عندما يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم آيات القرآن العظيم، فإن بعضاً منهم يستمعون بظواهرهم، وأما قلوبهم فلا تعي شيئاً، لأنهم للحق كارهون. وطالما أنهم كذلك في منهج إعراضهم. فقراءتك وإرشادك لهم كمن يقرأ على الساهي والمعرض الذي لا يعي ما يُقال له. مما يفيد أن مقصدهم ليس هو الانتفاع بما يسمعون، بل لمآرب أخرى، بدليل تأكيد حالهم بعد الخروج من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ ﴾ فإنهم باقون على حالهم من الاستماع طيلة جلوسهم. حيث أفاد حرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ البقاء على هيئة الاستماع التي كانوا عليها طوال الوقت الذي تتلوا عليهم القرآن، إلى أن خرجوا من عند الرسول صلى الله عليه وسلم، وعندما خرجوا ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ أي: قالوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حضروا مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ ماذا قال قبل قليل؟ من باب الاستهزاء، بما يفيد: أننا لم نهتم ولم نكترث لقوله الذي قال من القرآن، أو من المواعظ.

وقد أفادت دلالة ﴿ ءَانِفًا ﴾ أي: أقرب الأوقات التي كانوا فيها. ليتأكد بذلك أنه لم يَفُتْ عليهم الوقت الذي يمكن أن ينسون منه شيئاً، أو يسألوا عن مضمونه. بل يؤكد ذلك أن المقصد هو الاستخفاف بما سمعوا، وأنه كلام لا قيمة له في حسبانهم البغيض، ولا يلزم منا أن نعيه لنعمل به. فهو استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لم ينتفعوا بذلك الاستماع، لعدم إرادتهم الخير والحق. وقد أفاد سؤالهم للصحابة رضي الله عنهم، قوة إدراكهم بأنهم أهل طاعة والتزام وفهم.

ومن إعلاء شأن الصحابة رضي الله عنهم أن سماهم الله تبارك وتعالى ﴿ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ وهي منقبة عظيمة جليلة. وجعل اتجاه المنافقين لهم بالسؤال، شهادة منهم لهم بالعلم ﴿ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ مما يبين أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا قدوة ومثالاً لما يجب أن يكون عليه المنافقين وغيرهم. فكان الواجب عليهم أن يكونوا مثلهم. حيث اتجهوا لهم بالسؤال ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ وهي تزكية عظيمة من الله تعالى للصحابة بالعلم. مما يفيد أن من اتبع هذا الدين بفهمه له فهو من أهل العلم والفضل. وهذا يبين أثر النية على التحصيل العلمي والفهم، فالمنافقون لم يحصلوا على الثمرة، وهي الإيمان والطاعة، لأن النية لم تكن صالحة. بينما الصحابة رضي الله عنهم نالوا العلم والعمل والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك نالوا تزكية من ربهم على ذلك. بل كانوا مركز ومحطة سؤال للمنافقين.

ثم أشار الله تعالى إليهم بما يستحقون من الطبع على قلوبهم، جزاء وفاقاً لما كان منهم، فقال تعالى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فهؤلاء ختم الله تعالى على قلوبهم بما يمنعهم من اتباع الخير والحق، وذلك عقوبة لهم. وبدأ البيان العظيم باسم الإشارة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ التي تدل على الموصوف استماعهم من المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: ختم على قلوبهم بما يمنعهم من اتباع الخير والحق، وذلك عقوبة لهم، بما كان منهم من الاستهزاء، والتظاهر بالاستماع، وهم في الحقيقة متابعين لأهوائهم ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فاتبعوا ما تحبه أهواءهم من الباطل، وأعرضوا عن الحق الذي استمعوه وأيقنوه. مما يفيد أن عقوبة الله تعالى للمكابر قد تبادره في الدنيا، فَيُحْرَم من اتباع الحق، ليموت كافراً. كما يفيد هذا البيان أن القلب هو مكان الإدراك، والتعقل، حيث حصل الطبع على قلوبهم.

ثم بعد بيان حال المنافقين وما استحقوا من الجزء، بالطبع على قلوبهم، يخبر سبحانه وتعالى بالمقابل عن مزيد عطائه وإكرامه وتوفيقه للمؤمنين، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

والذين آمنوا طلباً للهداية من ربهم ﴿ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ زادهم ربهم من الهدى، وزيادة الإيمان، والتوفيق والتسديد، وما يتوصلون به لكل خير ﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ وأعطاهم التقوى التي تعينهم على الطاعة، وتُبعدهم عن المعصية.

وفي هذا مقارنة بين عطاء الله تعالى لفريقين مختلفين، ومتضادين، فريق النفاق الذين يستهزئون بالوحي، فعاقبهم الله تعالى بالطبع على قلوبهم، بما يمنعهم من اتباع الخير والحق، وذلك عقوبة لهم على ما كان منهم. وفي المقابل يخص عَزَّ وجل بكريم عطائه وتوفيقه لمن اتبع هداه سبحانه وتعالى. بما يفيد أنه كلما تقرب العبد من ربه زاده سبحانه وتعالى هداية من توفيقه وكريم عطائه، كما ورد في الحديث الصحيح (وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه)[1] وفي الآية الكريمة دلالة على درجات الهدى، بتقرير الزيادة في التحصيل لها ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ بما يفيد: أنه كلما ازداد العبد تقرباً من الله تعالى زاده وأمده الله تعالى من الهداية والتوفيق. كما أفاد ﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ أن مِنحِة التقوى أعظم مكافأة من الله تعالى لمن يلتمس هدي ربه عَزَّ وجل. لأن التقوى تشتمل على أقوى عاملين لتقوية الطاعة واجتناب المعصية، وهما: الخوف من الله تعالى. والرجاء. فيخاف المؤمن من معصية ربه عَزَّ وجل، فيمتنع ويجاهد نفسه على الابتعاد عنها. وقوة الرجاء في رحمته ومغفرته وكريم عطائه سبحانه وتعالى، فيندفع للطاعة رجاء ما عند الله تعالى. فيكون في حالة عظيمة من الاستقرار وطمأنينة النفس. اللهم اجعلنا ممن آتيتهم تقواهم وهديتهم ووفقتهم.

ثم يعظ الله تعالى الكافرين عموماً بما يجب أن ينتبهوا له. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾ ماذا ينتظر هؤلاء حتى يسلموا؟ فهل ينتظرون الساعة أن تحل بهم، وقد جاءت علاماتها. فقد ورد البيان من الله تعالى بصيغة السؤال الاستنكاري الموافق لحالهم مع الحق الواضح المبين. فهل بلغ بهم الكفر والعناد والاستكبار مبلغ من ينتظر قيام يوم القيامة. والمقرر لهم بأنه إن لم ينتهوا عما هم عليه من الكفر والعناد سيجدون أنفسهم أمام يوم القيامة الذي يأتي على الناس بغتة ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ ﴾ أي: تأتيهم فجأة وهم متغافلون عن يوم القيامة، حتى تحصل عليهم وقعتها وهم غافلون، وحينها لا يستطيعون التوبة. ﴿ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا ﴾ أي: أمارات اقتراب الساعة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها. وقيل:

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٩٢/٤) برقم (٦٥٠٢)

انشقاق القمر، والدخان[١] وجاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (بُعثتُ والساعة كهاتين)[٢] وضم السبابة والوسطى صلى الله عليه وسلم.

ثم يزداد التحذير للكافرين ببيان كيف سيكون حالهم من التذكر والرجوع إلى ما يجب عليهم حين تأتيهم الساعة ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ كيف يتأتى لهم الاتعاظ والاعتبار والتذكر وقت وقوع الساعة، وقد فاتهم الانتفاع من حياتهم. فقد ورد هذا الاستنكار عليهم بصيغة السؤال التحذيري، والتوبيخي لِمَا كان منهم من التكذيب والإنكار، ثم أصبحوا يستهزئون بما علموا من الحق ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ ﴾ من أين لهم التذكر والاتعاظ؟ كيف يتأتى لهم الاتعاظ والاعتبار والتذكر ذلك الوقت؟ وقد قامت القيامة ﴿ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ فمن أي باب ووجه لهؤلاء المكذبين الجاحدين بآيات ربهم وحججه وبراهينه، فمن أين لهم متسع من الوقت للذكرى وقد ضيعوا وفرطوا فيما لا يمكن لهم أن يتداركوه. فقد جاءهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بالحجج والبراهين الواضحة البينة الظاهرة. فكفروا وطغوا، وطعنوا فيه. مما يفيد التحذير والوعظ لهم، بأن يطيعوا الله ويُطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم حتى ينجيهم الله سبحانه وتعالى من العذاب، ويفوزوا بالجنة قبل أن تأتيهم الساعة التي ظهرت علاماتها. وهذا من كرم الله تعالى ورحمته بالعباد، إذ يعظهم بكل وجه ووسيلة مع أنهم في حال الاستكبار والعناد.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز العظيم إلى تقرير وحدانيته عزَّ وجل، من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، بما يفيد تفخيم وإجلال وتعظيم الأمر، فيقول عزَّ جل﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٥٩)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٣٢٠-٣٢١) برقم (٤٩٣٦)

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ فاعلم أيها النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فلا معبود بحق إلا الله عَزَّ وجل، ثم تلى ذلك الأمر العظيم توجيه النبي صلى الله عليه وسلم بأمر آخر، وهو أن يستغفر لذنبه، وكذلك للمؤمنين والمؤمنات.

فبدأ التوجيه العظيم بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ فَٱعۡلَمۡ ﴾ الذي يفيد الإخبار بما بعده. أي: فاعلم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بعظيم ما سيعلمك ربك به من علم عظيم، ألا وهو ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فجعل تبارك وتعالى التوجيه لشخص النبي عليه الصلاة والسلام، لإظهار أهميته، وتفخيمه وتعظيمه وإجلاله بالتطبيق والامتثال، وبإظهار منزلة ومكانة شرف المعلوم، ووجوبه، حيث ورد بصيغة الأمر ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه هو المعبود وحده لا شريك له، وذلك بحصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله غيره جَلَّ جلاله، فنفى كل معبود غيره سبحانه وتعالى، وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل.

وقد تضمنت ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ نفي الألوهية عن غيره عَزَّ وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ فلا إله غير الله تعالى، فأعطى أسلوب النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى، ثم حصر الألوهية له عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل. وقد تصدر ذلك بنون التوكيد التي التحقت بضمير لفظ الجلالة ﴿ أَنَّهُۥ ﴾ لتؤكد ما بعدها من البيان. والمسبوقة بفعل الأمر ﴿ فَٱعۡلَمۡ ﴾ فيكون من دلالة ﴿ فَٱعۡلَمۡ ﴾ أن كل ما خالف توحيد الله تعالى فهو جهل وليس بعلم. مما يفيد عظيم دلالة قوله تعالى ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فإنه يجب وجوباً على كل إنسان أن يعلم بهذا العلم العظيم، ويقرره في نفسه، ويطبقه في كل شأن. فيوحد الله تعالى، ولا يصرف شيئاً مما هو لله تعالى إلا له عَزَّ وجل. وأن يُعظم توحيد ربه، ويوليه جُلَّ عنايته واهتمامه، علماً واعتقاداً وعملاً. وأن من لم يُوحد الله تعالى فقد أشرك، ومن أشرك فقد كفر. لأنه خالف ما أمر الله تعالى به.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى الأمر بالاستغفار ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ فبدأ الأمر بالاستغفار لنفسه صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الْمُجتَبَى. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه يقول (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[١] وورد قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني)[٢] مما يدل على سرعة استجابته صلى الله عليه وسلم، والامتثال لربه تبارك وتعالى، وهو الحريص على كمال الطاعة عليه الصلاة والسلام. فكيف بمن هو دونه صلى الله عليه وسلم. فإنه يحتاج المداومة على الاستغفار. وقد شمل الأمر من الله تبارك وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام وكذلك للمؤمنين والمؤمنات. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ وهذا يدل على رحمة الله تعالى بالمؤمنين والمؤمنات، إذ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم، وهو المستجاب الدعوة. مما يلزم كل مؤمن ومؤمنة أن يقابل ذلك بكثرة الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، وأن يحمد الله تعالى أن أكرمه باستغفار النبي له عليه الصلاة والسلام. وفي تخصيص المؤمنات بالرغم من دخولهن مع المؤمنين ما يفيد إظهار العناية بهن من ربهن سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بعظيم ودقة علمه، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ فإن ربكم يعلم جميع تقلبات أحوالكم التي تكونون عليها، وكذلك ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: مرجعكم الذي ترجعون إليه، ليشمل: نومكم وراحتكم، ويشمل مثواكم في القبور، ومثواكم في الآخرة. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى الأقوال في ذلك. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. وقال مقاتل رحمه الله تعالى: متقلبكم بالنهار، ومأواكم بالليل[٣] فهو بيان عن إحاطة علمه سبحانه لكل تقلب من أحوال الناس، ليلاً ونهاراً، وفي أحوال الصحة والمرض، والفقر والغنى، والعبادة، والعمل، والراحة والسكون، ومثواكم عند نومكم وراحتكم، وفي قبوركم، ومثواكم في الآخرة، فهو شامل لكل وقت وحين. فلا يخفى على الله تعالى شيء من أحوال العباد، فاحذروه وأطيعوه، وادعوه فهو عليم بحاجاتكم. فإن فيه ترهيب وترغيب.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى الإخبار عن المفارقات بين حال المؤمنين في طلب القتال والجهاد سبيل الله تعالى، وبين حال الذين في قلوبهم مرض، حين ينزل شيء من القرآن في شأن القتال. فقال تبارك وتعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ تخبر هذه الآية الكريمة عما كان من رجاء المؤمنين بأن ينزل الله سبحانه وتعالى سورة تُشَرِّع أحكام وتفاصيل القتال للمؤمنين، فيقول

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٤/٤) برقم (٦٣٠٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٧١/٤) برقم (٦٣٩٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٢/٧)

سبحانه وتعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: يقول أهل الإيمان: هلَّا أُنزلت سورة تُتلى في كتاب الله تعالى، يحكم الله تعالى فيها شأن القتال، فيتبين لنا أحكامه، ويظهر لنا ثوابه.

ومن بلاغة البيان أن في قول المؤمنين ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ لم يذكر السياق مضمون السورة المطلوبة، فقال تعالى عن قول المؤمنين ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ باعتبار ورود المطلوب في السياق الذي يليه، وهو قوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ فأغنى هذا عن التنصيص عليه ابتداء، تلافياً ومنعاً للتكرار. وهذا من دقائق السياق الكريم. فأوضح قوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ ما يخص الذي قبلها ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ وفي نفس الوقت أوضحت لِمَا بعدها من البيان، وهو قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ فجمع موقع قوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ إشباع الطرف الأول من السياق، وحال أهل الطرف الثاني، الذين امتعضوا من السورة التي ذُكر فيها القتال. وهذا من قوة بلاغة البيان في إعجاز تراكيب كلماته وسياقه إلى درجة الإعجاز، الذي يؤكد أن هذا ما هو إلا كلام معجز، وكلام الله سبحانه وتعالى.

وهنا انقسم الناس إلى قسمين: فريق المؤمنين، الذين طلبوا السورة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنهم تمنوا شرعية الجهاد[١] قال مفسرون: سألوا ربهم أن يُنزّل سورة فيها ثواب القتال في سبيل الله تعالى، اشتياقاً منهم إلى الوحي، وحرصاً على الجهاد[٢] مما يفيد رغبة المؤمنين في إعزاز دين الله تعالى، وأنهم يبذلون أرواحهم من أجل ذلك، ليتبين منزلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم. وفي هذا تكريم لهم مقارنة بمن يكره ذلك من المنافقين الذين دخلوا في صفوف المؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى حين تنزل سورة محكمة في شأن القتال ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: غير منسوخة، فظهر فيها حكم القتال، وثوابه، وما يتعلق به من أحكام، فهنا يظهر الفريق الثاني: المضاد لفريق المؤمنين. فقال الله تعالى عنهم ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الذين هم أهل النفاق. فكشف البيان

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٢/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٢/٧)

أن في قلوبهم مرض الشك والريبة، ومرض محبتهم لملاذ الدنيا وزخرفها، فإن هؤلاء المنافقين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا النظر ليس نظراً طبيعياً، بل مملوء بالحنق، ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ نتيجة كراهتهم للموت في سبيل الله تعالى، وتفضيلهم الدنيا على أن ينصروا دين الله تعالى. فأخبر سبحانه وتعالى عن نوع نظرتهم وما تحمله من معاني ومقاصد ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: يُشْخِصُون أبصارهم بشدة نحو الرسول صلى الله عليه وسلم. كما ينظر الشاخص بنظره عند الموت، فكأنها توقفت أبصارهم وهي متجهة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من هول ما راعهم، وأخافهم. لأنهم أمام أمرين: إما أن يقاتلوا، وهذا ما يكرهونه ويفرون منه. وإما أن يقعدوا عن القتال، وهذا يكشف ويبين حالهم، ويظهر نفاقهم. فعالج شأنهم تبارك وتعالى بالتهديد، وبأن يأخذوا بالأولى أفضل وأخير لهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو: الويل لهم. فهذا وعيد وتهديد. قال قتادة رحمه الله تعالى: هذا وعيد، فأولى لهم، ثم انقطع الكلام، فقال تعالى ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾[١] وقال الجوهري رحمه الله تعالى: تهديد ووعيد[٢] فالأفضل والأخير لهؤلاء القول المعروف، الذي تقبله النفوس، وتألفه القلوب، ولا تنكره. بما يعلم الإنسان كيف يتعامل مع الحق إذا ظهر، فيلزمه أن يتعامل معه بالحق الذي هو المعروف والامتثال، بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وليس بالباطل الذي هو المنكر.

ومن بلاغة البيان أن موقع ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أفاد دلالتين: أحدهما: التهديد كما سبق من قول قتادة، والجوهري، وغيرهما. والدلالة الثانية: بيان الأفضل والأولى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم قال مشجعاً لهم ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[٣] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ولفظ ﴿ فَأَوْلَىٰ ﴾ هنا يجوز أن يكون مستعملاً في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور، ويدل عليه ما قبله. ثم ذكر الدلالة الثانية: ويجوز أن يكون ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ مستعملاً في التهديد والوعيد[٤] وكذلك من بلاغة البيان أن أعطى قوله تعالى ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ وجهين: الأولى: التهديد والوعيد. والوجه الثاني: الإرشاد للحق بدلاً من تصويب أنظارهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١١/٢١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/١٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٢/٤)

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٨٢/١٠-٣٨٣)

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بتلك النظرات المملوءة بالخوف والانزعاج، والكراهية للأمر بالجهاد. وهذا من دقائق البيان الذي تعاضدت فيه دلالتان غير متعارضتان، فكل واحدة منهما لا تُلغي ولا تستبعد الأخرى.

وهنا وضع الله تعالى برحمته الحلول والمعالجة لهم، بقوله تبارك وتعالى ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فطاعة وامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم هو الأخير والأفضل والأليق ولأحسن والأجمل، وأنه أحق وأوجب من أن يتركوا الامتثال والطاعة. فهو معالجة لما أصابهم من الحيرة والذهول. فوجه هؤلاء المنافقين للأولى، أفضل من أن ينظروا بهذه النظارات المليئة بالرعب والخوف والكراهية، فعليهم بالطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ والكلام المعروف، فإنه هو الأمثل والأحسن مما صدر منهم. مما يبين ويُظهر أهمية معالجة ما يظهر من النفس في مصادمة الحق، بأن يعطفها على الصدق، وعلى القول المعروف، الذي عُرِفَ بأنه هو الصواب، وهو الصحيح.

وبعد المرحلة الأولى من المعالجة لأمر المنافقين، يخبر سبحانه وتعالى بالمرحلة الثانية من المعالجة: وهي ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ فإذا جد الحال في شأن القتال، فإنه يكون الأمر والحال هو إظهار صدق الإيمان والطاعة ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فلو صدقوا الله في إيمانهم وجهادهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي: لكان صدقهم مع الله تعالى خير وأفضل وأحسن لهم من كراهية القتال والمعصية. مما يبين أن منزلة الصدق مع الله تعالى هو القوة الإيمانية التي تقود العبد إلى التزام طاعة ربه في المكره والمنشط. كما يبين ويُظهر هذا المنهج من الله تعالى الأسلوب الرباني العظيم في معالجة حالات النفوس بأدق وأحسن البيان والمعالجة، مما يدل على رحمة الله تعالى، وحكمته، بما يبين للمؤمنين كيف يعالجوا ويتعاملوا مع غيرهم عندما يحدث الخلاف والاختلاف. بل ويستنبط منها الكثير من فقه التعامل، والأوجه التي يمكن أن تكون بها المعالجة والمعاملة. فالحمد لله على هدايته وبيانه وتوفيقه.

وقد أظهر قوله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ المنهج الذي يجب أن يكون عليه الإنسان حال الحقائق، وما يجب عليه، وهو الصدق والثبات، فإذا جَد الْجِد فعليكم بالصدق ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ فلو صدقوا الله ربهم في إيمانهم وثباتهم وجهادهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ لكان ذلك هو الأفلح لهم. مما يبين أن على الإنسان أن يتحامل على نفسه عند ورود الحق، بقبوله، والسير فيه، وألا يطاوع شهواته وهواه، والشيطان. وهو حال المؤمنين الذين صدقوا الله تعالى.

ثم يذكر تبارك وتعالى حال من تولى وصد عن سبيله، واتجه إلى الفساد في الأرض. فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ فإن مَنْ تولَّى عن طاعة الله تعالى فإنه لا يتجه إلى خير، بل يتجه للباطل، وإلى قطيعة الأرحام من الأقارب وأصحاب الحقوق. وقد أورد الله تعالى ذلك بأسلوب الاستفهام الذي يستنكر ويقرر عليهم توليهم ونتائجه التي يكونون عليها، ومبيناً لهم أن من تولى عن منهج الله تعالى فليس أمامه إلا الباطل، فليس ثمة خيارات غير خيارات طرق الباطل.

وقد استهل البيان بحرف ﴿ فَهَلۡ ﴾ الذي يفيد الاستفهام الاستنكاري، وليس للاستعلام منهم، والذي أوضحه ما بعده من البيان، بأنه للاستنكار وتقرير النتيجة والمحصلة، بأنهم سيتجهون للباطل. وقد أفادت دلالة ﴿ عَسَيۡتُمۡ ﴾ في التحاقها بحرف ﴿ فَهَلۡ ﴾ التنديم لهم على ما بعده من البيان والتوجيه، وهو ﴿ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ حال إن عزمتم على التولي، بترك الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أن يحصل منكم الفساد، وقد ورد الفساد عاماً، ليشمل كل فساد يتمكنون منه، لأن الخروج عن منهج الإسلام هو خروج للباطل والفساد بأنواعه.

ثم خص مِن بين أنواعه قطيعة الأرحام ﴿ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ بالبغي والظلم لأقاربكم، وعدم وصلهم بما لهم من الحقوق. مما يبين قوة قسوة قلوبهم، فقطيعة الأرحام تدل على قوة القسوة. مما يبين أن صلة الأرحام من الإيمان، وأنها تجسيد لمنهج الله تعالى، وأن قطيعتها من خصال أهل الكفر والنفاق. وأنه يجب صلتهم بالمعروف من الدعاء، والإحسان إليهم بالأقوال والأفعال.

ثم يشير سبحانه وتعالى إلى الذين في قلوبهم مرض، وهم الذين يفسدون في الأرض، ويقطعوا أرحامهم، بأن غضب الله تعالى عليهم، فنعتهم باللعن والطرد من رحمته. فقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ فأولئك الذين أفسدوا في الأرض، وقطعوا الأرحام ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بأن أبعدهم ونفاهم عن رحمته عَزَّ وجل، فقد نالوا سخط الله تعالى وغضبه. وعاقبهم كذلك بأن ﴿ فَأَصَمَّهُمۡ ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون سماع انتفاع لما يُقال لهم من الحق والخير. ومن العقوبات كذلك ﴿ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ وجعلهم لا ينتفعون من أبصارهم وبصائرهم فيما ينفعهم. فالصمم والعمى متعلق بعدم الانتفاع بها، وتوظيفها فيما ينفعهم، فيسمعون الحق والخير ولكن لا يبادرون له، وكأنهم لم يسمعوا ولم يروا. وهذه العقوبة بسبب ما كان منهم من كراهية الطاعة، ومحبة الفساد، وتقديم أهواءهم على طاعة الله تعالى. مما يفيد التحذير من هذا المسلك، فإن

عقوبة الله تعالى قد تكون بالحرمان من تحصيل الخير. ولذلك ما أحوج وأفقر الإنسان لربه ولطاعته وامتثال أمره، وسؤاله سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق.

ثم ينكر الله تعالى ما هم عليه، بالرغم من أن مفاتيح الخير كلها في القرآن الذي أعرضوا عنه، ولم يتفقهوا فيه بالتدبر والامتثال. فيقول عزَّ وجل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أفلا يتفهمون القرآن، فيتعظون بما اشتمل عليه من الحجج والمواعظ، والبراهين القاطعة، والأدلة الظاهرة، والكافية للزجر، والترغيب والترهيب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله تعالى، التي يعظهم بها في القرآن العظيم، الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بَيَّنَها لهم في تنزيله. فيعلمون بها خطأ ما هم عليه مُقيمون؟[١] مما يفيد أهمية تدبر كتاب الله تعالى، فإن فيه ما يهدي به الإنسان للحق والخير.

وقد ورد الاستنكار لهم بأسلوب السؤال الذي يستنكر عليهم عدم الاتعاظ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أفلا يتعظون بالقرآن؟ ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ بل إن على قلوبهم أقفالها على ما هم عليه من المعتقد الباطل، فلا يدخل إليها الحق والخير. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره عن ﴿ أَمْ ﴾ أنها بمعنى: بل. وقال رحمه الله تعالى: أن ذكر الأقفال استعارة، والمراد أن القلب يكون كالبيت المقفل لا يصل إليه الهدى[٢] فحال قلوبهم كحال من وضع لها الأقفال التي توصدها عن قبول الحق. فأقفلها عن سماع ورؤية الحق. مما يفيد أن الإنسان إذا لم يتواضع للحق ويسمعه، ويعي ما فيه من الآيات والدلائل، فإنه لن يكون أمامه إلا الباطل الذي قد أغلق عليه أقفال قلبه، حتى لا يدخله الحق والصواب. ويُقاس على ذلك مواقف المشاورات وتبادل الآراء بين الناس في اجتماعاتهم، بأن ينظر للحق، والأصوب، وليس للقائل. وبالتالي وجوب قبول الصواب، أو الأصوب ممن هو أقل رتبة من غيره. فليتنبه الإنسان إلى هذه المزالق السلوكية والفكرية الخطيرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٥٤)

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

وتستمر آيات السورة الكريمة في تجلية حال المنافقين الذين ارتدوا عن دين الله تعالى، بعد أن اتضح وظهر لهم الحق، وتكشفت لهم دوافع ارتدادهم عن الحق. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ إن الذين نكصوا برجوعهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ بعد أن تبين لهم هدى الله تعالى بالشواهد والحجج، واتضح لهم ما يُوجب عليهم الإيمان، فإن سبب ذلك هو ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي: زين لهم القبيح، بالارتداد، وجَمَّل لهم خطاياهم، فجعلها ممدوحة في نفوسهم. وسهل لهم ذلك، وكذلك ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي: خدعهم بالبقاء على كفرهم، بمد الأمل لهم بما يغريهم ويخدعهم. فخدعهم، وقبلوا تزيينه وما أملاه عليهم من الأمل الكاذب الخادع.

ومن دقائق البيان الكريم أن أوضح كلام رب العالمين ارتدادهم بالتقهقر إلى الخلف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ ﴾ والارتداد هو الرجوع، ووصف هيئة الرجوع الذي يمثل حالهم بأنه إلى خلفهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم ﴾ بما يبين أن هيئة مسيرتهم كانت إلى الأمام، الذي يؤكد أنهم ساروا في الحق بمعرفتهم، ثم حصل منهم الارتداد ﴿ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم ﴾ بما يفيد العودة والرجوع إلى الطريق الذي جاؤوا منه. وهو طريق الكفر ومنهجه. مما يدل على غرابة أمرهم، إلا أن الله تعالى نفى تلك الغرابة بإيضاح السبب ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ مما يدل على خطورة الشيطان على من سايره وتابعه، واغتر بتزيينه لسوء العمل والفكر والاعتقاد. مما يفيد أهمية الحذر منه. وأن العاقل لا يوافقه، ولا يجعل له عليه سبيلا، بل يعتصم بربه عَزَّ وجل.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد عن تفاصيل هذا الارتداد، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ والسبب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ أنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سبحانه وتعالى، وهم عموم الكفرة، وسواء من المشركين، أو من اليهود، أو غيرهم. فداهنوهم، بقولهم لهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ سنتابعكم ونوافقكم في بعض الأمور التي تحصل لهم بها منفعة مع الكفرة، على حد ظنونهم وقياساتهم الفاسدة، وهذا شأن المنافقين، يُظهرون خلاف ما يبطنون. قال القرطبي رحمه الله تعالى: سنطيعكم في بعض الأمر. أي في مخالفة محمد، والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين أمره في السر. وإنما قالوا ذلك سراً فأخبر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم[١] مما يبين أنهم يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر. بما يدل على أن صدق الإيمان يُظهره الثبات على الطاعة، والانقياد لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

فقادهم هذا الأسلوب من النفاق إلى الارتداد نحو الكفر وأهله، بالخروج عن دين الله تعالى. ولكن ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فإن الله تعالى يعلم ما يخفونه ويسرون به، ويتخفون به عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين. فكشف الله تعالى عن طويتهم، وفضح أمرهم. مما يفيد أن التعامل مع الله عَزَّ وجل هو التعامل مع العليم الذي لا تخفى عليه خافية، بل يعلم ما تكنه وتتحفظ عليه الصدور.

ثم يعظهم الله تعالى، ويعظ غيرهم بما سيكون من شأنهم عند الموت، فقال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ فكيف سيكون حالهم عند انتزاع أرواحهم من قِبَل الملائكة الموكلة بقبض أرواحهم ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ سؤال وعظ وتحذير، وكشف إلى ما سَيَقْدِمُون عليه. فإن الملائكة الموكلة بقبض أرواحهم سيتعاملون معهم بالإذلال والتحقير لهم، فإنهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ فمن الإهانة لهم، وسُوء العذاب والمصير أن الملائكة تضربهم على وجوههم التي تمثل الشرف والمنزلة والقيمة عند الإنسان. وكذلك من مزيد الإذلال أنهم يضربون أدبارهم من الخلف، إهانة وتحقيراً لهم.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٥/١٦)

وقد ورد في سورة الأنفال ضرب الملائكة للكافرين على وجوههم وأدبارهم. فقال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ وأن من فوائد النص الكريم ودلالاته: أنه سبحانه وتعالى كنَّا بأدبارهم عن مؤخرتهم واستهم، فعن مجاهد رحمه الله تعالى في قوله تعالى ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: استاهم، ولكنه كريم، يُكني سبحانه وتعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة، فضربوا أدبارهم. وعن الحسن رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشِّراك، قال: ما ذاك؟ قال (ضرب الملائكة)[١] وهذه فائدة أخرى بأن دل النص على أمرين: الأول: عام لكل كافر. والثاني: أن فيه ذِكْرٌ لما حصل للمشركين يوم بدر، وقد ثبت مقاتلة الملائكة مع المؤمنين، فكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة، فضربوا أدبارهم. وهذا من فيض دلالة النص الكريم ومن بلاغة إعجازه التي تضمنها سياقه.

ثم يعلل سبحانه وتعالى سبب ذلك العذاب والإذلال لهم، بأنه لإظهار الموعظة، ووجوب الوقاية والتوقي من مسلك هؤلاء المنافقين. فيقول تبارك وتعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ذلك العذاب من ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم بسبب أنهم اتبعوا الأمر والشأن الذي أسخط الله تعالى عليهم، من النفاق، ولتواطؤ مع الكفرة، ومساندة الكافرين، وخذلانهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. بل ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وكرهوا وأبغضوا ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الإيمان والطاعة والامتثال له عَزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما قد عملوا من الخير قبل الردة[٢] مما يبين أن الكفر يُحبط العمل، كما أن الإسلام يحبط ما سبق من الذنوب. وهذا البيان من الله تعالى يكشف حالة النفاق والمنافقين، وما سيكون لهم، بما يوجب الحذر والاتعاظ بما قاله وبينه الله تبارك وتعالى. ولولا رحمته بالعباد عَزَّ وجل لما وعظهم وحذرهم، وأرشدهم، وبين لهم الجزاء والثواب.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٠/١١-٢٣١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٩/٥)

ثم يخبر الله تعالى بعظيم علمه، وقوة قدرته، وعظيم سلطانه على خلقه، ومن ذلك هؤلاء الذين يتخفون ويُسرون بالأسرار التي يريدون بها هزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾ أو يعتقد هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بمرض النفاق والكراهة للدين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن لن يخرج الله تعالى ما في ضمائرهم من الكره للإسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وما يسرون ويتخفون به؟ والمقصود بالأضغان هي ما يضمرون من المكروه والحقد.

بما يفيد إن كان ذلك هو ظنهم فإن حسبانهم وظنهم خاطئ وغير صحيح. ومن دقائق السياق أن بدأ النص الكريم بسؤال استفهام، وهو ﴿ أَمۡ حَسِبَ ﴾ ليقرر به الحقيقة، ويُجَهِّل به ويستنكر على من يظن أن الله تعالى لا يعلم السرائر، وما تُخفي الصدور. فإنه تبارك وتعالى لا تخفى عليه سرائر العباد. فهو سؤال تقريري للحقيقة، مع شد الانتباه، ولفت الذهن للحسبان والظن الخاطئ. فلا تحسبون يا من تتخفون عن غيركم أنكم تخفون على ربكم سبحانه وتعالى. فإنكم لا تفوتوننا في شيء، ولا يخفى علينا منكم شيء. وقد بدأ هذا السؤال الاستنكاري بحرف ﴿ أَمۡ ﴾ الذي يفيد معنى بل. للانتقال إلى تكذيب ظنهم وحسبانهم، وتصحيح من كان ذلك فهمه. لإفادة نفي وإبطال حسبان ومعتقد الجهلة، وظنونهم في ربهم سبحانه وتعالى.

ثم يُظهر ويبين سبحانه وتعالى المزيد من قدرته لمن يتجاهلها، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن قدرته جَلَّ جلاله في أنه لو شاء وأراد لكشف علامات المنافقين التي تظهر عليهم، بإظهارها وإبرازها فلعرفتهم أيها الرسول صلى لله عليه وسلم، وانكشف أمرهم للناس ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ فلو أردنا لأظهرنا سيماهم من العلامات التي تدل على نفاقهم. وأما الإظهار الآخر فهو متعلق بحديثهم، فقال تعالى ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ أي: فيما يظهر من كلامهم الدَّال على نفاقهم، وعدم صدقهم. فلحن القول إمالة الكلام عن حقيقته لغرض من الأغراض. فيكون الإظهار من الله تعالى فيما لو شاء، لأظهره في أقوالهم، وفي أوصافهم. مما يبين عظمة قدرة الله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل سبحانه وتعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها[١] قال المفسرون: ولتعرفنهم في فحوى الكلام

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٤)

ومعناه ومقصده، فإنهم يتعرضون بتهجين أمرك، والاستهزاء بالمسلمين[١] قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ثم إن الله تعالى عَرَّفه إياهم[٢] ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بكمال علمه عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ فإن الله ربكم يعلم جميع أعمالكم، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى منها شيء، فيجازيكم بها. لإفادة الوعيد الشديد، ووجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن. فسبحان من لا تخفى عليه خافية عَزَّ في علاه.

ثم يخبر الله تعالى عن سنة من سننه في عباده، ليمتحنهم ويختبرهم به، وهو الجهاد في سبيله، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ ولنعاملنكم بالتكاليف التي تكشف وتمحص وتبين صدق المجاهدين في سبيله سبحانه وتعالى من الممتنعين، فيظهر المتحلين بالصبر عن غيرهم ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ أي: نكشفها ونبينها ونظهرها، حتى يتبين المطيع من الممتنع، والصابرين من غير الصابرين، فتظهر أخبار كل أحد بهذه التكاليف، والتي منها الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى. حتى يكون الثواب والجزاء على قدر مجاهدة الإنسان لنفسه في طاعة لربه سبحانه وتعالى، ومن ذلك الجهاد في سبيله عَزَّ وجل. وفي قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ﴾ هو تأكيد علم الله تعالى للعباد بالدليل والشواهد عند الحساب والجزاء، وإلا فإن الله عَزَّ وجل عالم بالإنسان من غير اختبار وابتلاء منه لهم. ولكن ليظهر علمه تعالى بالشواهد التي هي مناط الحساب والجزاء. فيظهر كمال عدله سبحانه وتعالى.

فيقرر جَلَّ جلاله هذه الحقيقة الربانية بتقرير الابتلاء والاختبار حتى تظهر حقيقة الإيمان. وفي نفس الوقت هو تقرير لمن يظن أن الادعاء كاف لتقرير الإيمان من غير تمحيص، وهو غير صادق في دعواه. فإن الله تعالى عالم بالعباد، بما لا يتطلب الاختبار والفحص، ولكن ليخرج المنافق منهم بالشواهد والأدلة، وليستوعب الكشف عن حقيقة كل من قال بأنه مؤمن وهو ليس بمؤمن، ومنهم المنافق، والكاذب، حتى يُبرزه ويُظهِرُه نفاقه، وكذبه، وشَكُّهُ بأنه لم يكن مؤمناً.

وينطبق هذا على جميع أنواع الابتلاء وعلى رأسها الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى. ليعم ويشمل جميع أنواع الاختبار والتمحيص، بالمصائب، والعطاء، والخسائر، والفقد، والأمراض، والأوامر والنواهي، والوساوس، وغيرها، مما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك ما أفقر وأحوج الإنسان لربه تبارك وتعالى، بأن يثبته، ويعينه، ويقوي إيمانه. اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وحبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

ويزداد البيان بياناً عن كشف شدة خسارة الكافرين، وأن ما يبذلونه لهزيمة دينه عَزَّ وجل ليس له أي ضرر على دين الله سبحانه وتعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، فيقول جَلَّ جلاله

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٥/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٢/٢١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فالذين كفروا، ولم يكتفوا بكفرهم، بل سعو في صد الناس عن الإسلام، وتنفيرهم عن دين الله تعالى بتشويه الدين، والكذب على الله تعالى ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: معاداة ومنازعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الوحي، وكل ذلك العداء هو ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ من بعد أن ظهر لهم صحة ما نزل من عند الله تعالى، وصِدْق رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه على الحق فيما يُبَلِّغُ به عن ربه عَزَّ وجل. ومع كل ذلك أصروا على كفرهم، وصد الناس عن دين الله تعالى. مما يبين أن كفرهم هو من باب العداوة والعناد والاستكبار والحسد.

وقد أظهر قوله تعالى ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ شدة العناد، مع شدة العداء للرسول صلى الله عليه وسلم، لأن المشاقة تدل على المضادة والمناقضة والمخالفة، بحيث أنهم على الطرف النقيض للرسول عليه الصلاة والسلام. فيخالفونه مخالفة المناقض والمعاند له عليه الصلاة والسلام. ثم من دقة الوصف أن ألصق البيان المشاقة تحديداً منهم للرسول عليه الصلاة والسلام. بينما أسند سبحانه وتعالى نفي الإضرار على دينه عموماً جَلَّ جلاله ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ ليشمل دينه عَزَّ وجل، والرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين.

ثم يبين ويوضح سبحانه وتعالى انعدام آثار ذلك على الدين، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، فيقول تبارك وتعالى ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ لن يترتب على تلك المشاقة، والعداوة، وما يقومون به من الإساءة أي ضرر على دين الله عَزَّ وجل، وإنما ضرره عائد ومنعكس على أنفسهم. فلن يصيبوا ما يريدون تحقيقه في دين الله تعالى.

ومن دقائق البيان أن قوله عَزَّ وجل ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ يبين ويوضح منزلة الدين، ومنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنزلة المؤمنين، بأن نسب نفي وقوع الضرر عليه عَزَّ وجل ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ لأن هذا الدين والقائمين به يمثلون طاعة الله تعالى، ومراده من العباد جَلَّ شأنه. فما يقومون به من العداوة للدين وأهله فإنما هي معاداة لله تعالى. وفي هذا تعظيم لجرمهم، وتعظيم للعقوبة التي سينالونها، جراء ما قاموا به. وليفيد عظيم التحذير والترهيب. وتعظيم هذا الدين ورسوله صلى الله عليه وسلم، مع بيان منزلة المؤمنين.

فبعد أن نفى سبحانه تعالى تحقيق مرادهم ومآربهم، يخبر عَزَّ وجل عن جزاء هؤلاء الكفرة الذين يصدون الناس عن سبيله. فيقول عَزَّ وجل ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فإن الله تعالى سيبطل تدبيرهم، وتخطيطهم، وما يضمرونه من الشر للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ويشمل كذلك أنهم لن ينتفعوا في الآخرة بأي شيء من أعمالهم التي ظاهرها الصلاح، فإن الخسارة لاحقة بهم في الدارين. مما يفيد التهديد والوعيد لهم، وكذلك التحذير، والبيان لهم ولمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة، بأن من يعادي دين الله تعالى، وأهل دينه فإن الدائرة عليهم. وفيه تطمين للمؤمنين بأن دين الله تعالى باق، فلن يهزمه أحد، ولن ينتصر عليه أحد، وأن الله تعالى مع دينه ومع المؤمنين على جميع من يعاديهم. مما يستوجب على المؤمنين العناية بدين الله تعالى تطبيقاً ودعوة حتى ينصرهم الله تعالى ويثبت أقدامهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

يخاطب الله تبارك وتعالى المؤمنين موجهاً وآمراً لهم بما يجب أن يكونوا عليه من الطاعة والامتثال لربهم سبحانه وتعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يحفظوا أعمالهم من الطاعة والبر، ولا يُبطلوها بالمعاصي والرياء والسمعة. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يخاطب الله تعالى المؤمنين بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لشد الانتباه. وإرعاء السمع لما بعده من البيان. فيا من آمنتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم به من عند ربكم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ استجيبوا لله ربكم، واستجيبوا لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. فيأمرهم بالامتثال والطاعة. آمراً لهم بما يجب أن يكونوا عليه من الطاعة والامتثال لربهم سبحانه وتعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وحافظوا على مكتسباتكم من الأعمال الصالحة، من الطاعة وعموم البر، وأن لا تبطلوا حسناتكم وتفسدوها بمعصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ورد الإبطال عاماً، ليستوفي كل

سبب يتحقق به الفساد، كالرياء والسمعة، والغيبة والنميمة، والكبائر، فهو نهي جامع لكل ما يُبطل الأعمال الصالحة ويفسدها.

وبدأ سبحانه وتعالى الخطاب بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ الذي يفيد شد ولفت الانتباه لأمر عظيم، يلزمكم أن تعطوه اهتمامكم وسمعكم، ثم الائتمار به، وقد ناداهم الله تعالى بصفة الإيمان، فسماهم بالمؤمنين﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بما يفيد تزكيتهم من الله تعالى باستجابتهم لنداء الإيمان، والتي توجب الائتمار بما آمركم به، فيا من آمنتم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم من الحق ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فيا من آمنتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم به من عند ربه ﴿ أَطِيعُواْ ﴾ امتثلوا واستجيبوا. فإن من لوازم الإيمان الاستجابة بالامتثال ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ مما يفيد التأكيد للإيمان بالطاعة والامتثال، وبما يفيد أيضاً أن الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله واجبة، وأنها من مقتضيات الإيمان. وقد وَحَّد سبحانه وتعالى تلك الطاعة بأن تكون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فقد وحد الله تعالى أمر الطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، بأمرين متكررين: الأول: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ والأمر الثاني: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ مما يؤكد وحدة الطاعة والامتثال. وبما يفيد أهمية وحدة الأمر والنهي، ووحدة القيادة التي هي لرسوله صلى الله عليه وسلم.

كما يفيد الأمر بالطاعة التحذير أيضاً من عدم الطاعة، وكذلك الحذر من إبطال المكتسبات من الحسنات ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ ولا تبطلوا حسناتكم التي اكتسبتموها بمخالفة الله ربكم، ورسوله صلى الله عليه وسلم. والبطلان هو الإفساد للعمل، وإزالة أثره، وهو ضد الفوز والفلاح وتحقيق الثواب. والبطلان يتحقق به الفشل. مما يفيد أهمية المتابعة، والاستمرار على الطاعة والامتثال.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن حال الذين كفروا وصدوا الناس عن دين الله تعالى، فإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله تعالى لهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ فإن الذين كفروا وسعو في صد الناس عن الإسلام، وتنفيرهم عن دين الله تعالى بتشويه الدين، والكذب على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ ثم ماتوا على كفرهم، ولم يتوبوا ويعودوا إلى الإيمان والاستسلام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لن يغفر لهم ما كان منهم من الكفر، ومن الصد عن سبيله سبحانه وتعالى. وبما يفيد: إن رجعوا إلى الحق والطاعة، تنالهم

مغفرته سبحانه وتعالى. وفي هذا استدعاء وترغيب لهم في ترك ما هم عليه من الكفر والعداء للإسلام. وهذا والله من رحمته عَزَّ وجل بعباده، إذ يرغبهم، ويعدهم بتكفير سيئاتهم إن عادوا إلى رشدهم، وأصلحوا من حالهم بالإيمان والتقوى. فإن ذلك دليل على عظيم رحمة الله تعالى، وأن مراده من عباده هو طاعته عَزَّ وجل، وليس عذابهم، إلا من أبى، وعاند بكفره، ومات عليه. فالحمد لله تعالى على رحمته.

وبعد ذلك يُشيد تبارك وتعالى بقوة المؤمنين، ومساندته ومعيته ونصرته عَزَّ وجل لهم، فينهاهم عن الضعف والاستكانة للكفرة الذين يصدون عن سبيله سبحانه وتعالى، فيقول جَلَّ جلاله للمؤمنين ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ فلا تضعفوا عن القتال، وعن مواجهة الذين يصدون الناس عن دين الله تعالى ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ وهو الضعف، واستيلاء الخوف على النفوس، وما ينتج عنه من الملاينة التي في غير محلها ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ وتدعوا عدوكم للمسالمة معه ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ وأنتم الأكرم والأعز، وأنتم الأكثر غلبة وعزة ورفعة، وقهراً لأعدائكم ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن ربكم معكم، بنصره وتأييده، وعونه لكم. وبالتالي فإن انتصاركم متحقق بمعية الله تعالى لكم، وأن هزيمتهم متحققة ومتعينة، لأن الله تعالى هو المتصدي لهم بقدرته، وقوة تدبيره وسلطانه، وهذه بشارة عظيمة، وقوة ما بعدها قوة للمؤمنين. بل ويؤكد لهم بمعيته عَزَّ وجل، بأنه معهم حتى في ثواب أعمالهم التي منها الجهاد ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ولن ينقصكم شيئاً من ثوابكم، فلن يظلمكم في شيء من أعمالكم الصالحة، بل يستوفيها لكم.

مما يفيد أن الأصل هو عزة وعلو المؤمنين، ومعية الله تعالى لهم، ونصره ومؤازرته لهم، إذا حققوا الطاعة والامتثال. وألا يهولهم ما عند عدوهم من الكثرة والقوة، أولئك الذين يصدون الناس عن سبيله سبحانه وتعالى، ويعادون المسلمين المعاداة الظاهرة لهم. وتبقى هناك مسائل فقهية وسياسية يدركها ولي أمر المسلمين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة، وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين صده كفار قريش عن مكة. ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك[١] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح. وقال كذلك: فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٥/٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٩/١٦)

مما يدل على أن هناك مساحة من الأمر معقودة بيد ولي الأمر. فهو من يدرك ذلك بحكم خبرته ومعرفته. وبالتالي فإن واجب المسلمين متابعة ولي الأمر، وعدم منازعته.

وينتقل البيان الكريم إلى إظهار حقيقة الدنيا، وأفضل ما يكون فيها الإنسان من الإيمان والتقوى. فقال جَلَّ شأنه ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ يخبر الله تعالى بحقارة الدنيا، ليتحفز الإنسان إلى الأصلح والأصوب ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ فما شأن الحياة الدنيا وما فيها من الزينة ومن الاشتغال بها إلا بمثابة من يلعب ومن يلتهي. واللعب هو: الاشتغال والعبث بممارسة ما لا فائدة فيه. وأما اللهو: فهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. وهو الحالة التي يشتغل فيها الإنسان بما لا يعود عليه بالنفع، فهو الاستمتاع بملذات الدنيا. ويعطي هذا الوصف للدنيا باللعب واللهو دلالة التحذير من مغبة ما يجد الإنسان في الدنيا من مغريات الإلهاء عن مصالح الآخرة، التي هي خير من الدنيا، بما يستثير الانتباه والتحوط والتحرز من لعب الدنيا ولهوها، والاشتغال عن ذلك بما ينفع في الدار الآخرة، لأنها خير للمتقين في الآخرة من دنياهم.

فَوصِفَت الدنيا بهذا الحال من الغرور تزهيداً فيها، لأنها فانية، مهما كان اللهو واللعب مغرياً، فإنه لا يحقق لصاحبه مصلحة دائمة ثابتة، تستقر بها عينه، ويطمئن بها فؤاده. فَيُزَهِّدُ اللهُ تعالى القلوب من التولع بالحياة الدنيا والانشغال بها عن الآخرة، ببيان حقيقتها التي تجعلهم لا يؤثرونها على الآخرة. بل ويشوقهم للآخرة والعمل لها، وتقديم الباقي على الفاني، بما يجعل المرء يسابق فيها لتحقيق مطالب فضائل الآخرة على الدنيا.

ومن جميل البيان أن ورد وصف الحياة الدنيا بأسلوب القصر والحصر، فقصر الحياة الدنيا بأداة القصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ وحصرها فقط في اللعب واللهو ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ فليست غير ذلك، فلا وصف لها متحقق فيها إلا أنها متاع مؤقت وزائل. كما جاء في سورة غافر ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ والمتاع هو: ما ينتفع به الإنسان، ثم ينتهي وينقضي، من طعام أو ممتلكات، ونحو ذلك، بما يدل على حقارة الدنيا وصغرها في رحاب الآخرة. وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه، وأشار يَحْيى: بالسبابة في اليم، فلينظر بما يرجع)[1] بما يفيد أن لا تنشغلوا بما محصلته لعب ولهو، فلا ثمرة له في الآخرة . ليفيد التحذير من التهالك على الدنيا في مواطن اللعب واللهو، وترك مستلزمات الإيمان والتقوى بالطاعة والامتثال. وفي هذا إرشاد إلى تصحيح الفكر الخاطئ، وغرس العلم النافع، والإرشاد إلى إزالة الحسبان القاصر، والتصور الخاطئ، الذي يهوي بالإنسان على الشهوات

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢١٩٣/٤) برقم (٢٨٥٨)

الزائلة، وترك النعيم المقيم. اللهم اجعلنا ممن يؤثرون الآخرة على الدنيا، وأن تجعلنا من الفائزين بالجنة في الآخرة، وجميع المسلمين يا رب العالمين.

ثم ينتقل التوجيه الكريم من التزهيد فيما لا فائدة فيه إلى ما يجب أن يستثمروا أوقاتهم فيه. فقال تعالى ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ فهناك ركيزتان مهمتان للفوز بالدنيا من أجل الآخرة: فالركيزة الأولى هي: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ ﴾ وهو الاعتقاد الجازم الصحيح بالله تعالى رباً، وبمحمد رسولاً صلى الله عليه وسلم، وبالإسلام ديناً، وبجميع مطالب الإيمان وأركانه، بكتبه ورسله، وملائكته، وباليوم الآخر، والجنة والنار، والحساب، والجزاء. وبكل ما هو من لوازم الإيمان. والركيزة الثانية هي: ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ والتقوى تجمع الخوف من الله تعالى، ورجاء ما عنده، وبالتالي فإن من لوازم التقوى العمل بطاعة الله تعالى، وأداء فرائضه، واجتناب ما نهى عنه سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن جعل التقوى بعد الإيمان ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ لأن الإيمان يمثل الجانب القلبي الاعتقادي، والتقوى تجمع بين الإيمان وبين التطبيق العملي لشريعة الله تعالى، فهي تجمع بين حالات النفس من الخوف والرجاء مع التطبيق العملي لدين الله تعالى، الذي يعبر عن حقيقة الإيمان. فالإيمان مطلب للتقوى، وأساس لحصولها.

وعند تحقيق الإيمان والتقوى ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي: ثواب أعمالكم من الإيمان والتقوى ﴿ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ فإن ربكم لا يطلب منكم دفع أموالكم مقابل ثوابكم، فأموالكم لكم غير ما فرض من الزكاة والصدقات، وما تتقربون به منها إلى مزيد ثواب الله تعالى. لأن الله عَزَّ وجل غني، بل وهو المغني. وبالتالي ليس هناك أثقال ومعاناة تتحملونها من أجل الجنة، فيطالبكم ربكم بدفع أموالكم لها، غير الإيمان والتقوى. فلم يكلفكم بما يشق على نفوسكم. مما يبين ويفيد أن ليس في دين الله تعالى صعوبة، وأن دين الله تعالى يحفظ للفرد كامل حقوقه من كل وجه، ويحقق للجماعة حقوقها في تناسق من غير تضاد.

ثم يبين تبارك وتعالى سبب عدم مطالبة العباد بأموالهم، وذلك بإظهار وبيان صعوبتها على النفس البشرية، وأنه بحكمته العظيمة لم يكلف الإنسان بما يُثقله، أو بما يجعله يتأخر عن الطاعة. فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ فإن يسألكم ربكم أموالكم التي رزقكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي: يجهدكم بالمبالغة في دفعها. والإحفاء المبالغة، وبلوغ الغاية في كل شيء[1] فإن أجهدكم

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٢٧/٤)

بها، فستكون النتيجة أنكم ﴿تَبۡخَلُواْ﴾ أي: تمتنعوا عن الامتثال، وتُقصروا فيه عما يجب عليكم. وبالتالي ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ فيخرج بذلك منكم الحنق والحقد والكره لهذا الإخراج من الأموال. وذلك لشدة محبة الإنسان للمال. مما يبين ويُظهِر رحمة الله تعالى بالإنسان، وما انطوت عليه نفسه من شدة حبه للمال. وأنه لا يأمر العباد إلا بما هو ميسور وسهل عليهم. ولم يكلفهم في الدين بما يشق على نفوسهم وأبدانهم.

فإذا كان الله تعالى يراعي الطبيعة البشرية في التكاليف وهو الخالق والمعطي والمغني، فإن في ذلك ما يُعَلِّم ويستدعي العباد أن يراعوا فيما بينهم الطبائع البشرية في تعاملاتهم، وفيما يطلبون من بعضهم البعض. فإن ذلك أدعى إلى عدم إثارة الأحقاد، واستخراج ما في النفوس من الحيف والبخل، والضغائن. كما يفيد ذلك أهمية الملاطفة في التعامل، وألا يستدعي كل أحد ما يستثير نفوس الآخرين مما لا يحبون، سواء على مستوى الأسرة، أو الأقارب، أو الجيران، أو المعارف، والأصدقاء، أو في المهنة، وغيرها. فيجب المحافظة عليها. فإنه درس في حُسن التعامل من الله سبحانه وتعالى، وهو المالك للعباد، وهم عبيده، وهو ربهم ومدبرهم وخالقهم. فله الحمد والشكر على هذا التوجيه والبيان، وعلى هذا التعامل الكريم اللطيف، والممتلئ بالرحمة.

ثم بعد تقرير الطبيعة البشرية التي يراعيها بحكمته سبحانه وتعالى، فإنه يكشف للناس حقيقة ذلك، بما يستثيرهم للإنفاق طواعية، حين يستدعي الأمر الإنفاق في سبيله عَزَّ وجل، فيقول تبارك وتعالى ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ بدأ البيان في كشف حقيقة الطبيعة الإنسانية باسم الإشارة لهم، مع دلالة التنبيه ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فدخلت هاء التنبيه على أولاء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وهي في موضع النداء، يعني: يا هؤلاء انظروا وتأملوا إذ ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حين يدعوكم ربكم سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم للنفقة في سبيله، لِمَا فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ فبعضكم يستحوذ عليه البخل بالتمنع، وهو قادر على أن يساهم بما هو أعظم وأكثر، فإن دفع وأنفق في سبيل الله عَزَّ وجل فإنما يدفع القليل الذي يدل على بخله. بما يفيد: كيف لو طُلب الأكثر؟ لظهرت أضغانكم، من الكراهية لذلك، وتكدرت بعض النفوس. مما يبين عظيم حكمة الله تعالى في التعامل مع الطبائع البشرية بحكمته العظيمة. إذ لا ينفيها، بل يقرر معالجتها بالحث على مجاهدة النفس، والارتقاء بها إلى البذل، والتضحية بالمال في سبيل الله سبحانه وتعالى.

ثم يعالج تبارك وتعالى ذلك من خلال بيان ما يعود على المنفق من الخير العظيم، بسبب نفقته في سبيله جَلَّ جلاله، وذلك ببيان الحالة المضادة للإنفاق وأثرها على النفس. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ فإن أثر ذلك البخل عائد على نفس البخيل، بأنه قد حَرَمَ نَفْسَهُ من عظيم الأجر والمثوبة، فأضاع وفوَّت على نفسه ما هو خير مما أمسك عنه. وهذه معالجة حكيمة، باستثارة النفس للإنفاق من خلال بيان عائد ذلك على نفس المنفق. وما يعود من حرمان الأجر والمثوبة على الممسك. وهي معالجة ربانية حكيمة في ترويض النفس للإنفاق في الخير. ولذلك عندما أدرك الصحابة ذلك الأمر تسابقوا في الإنفاق، وفي عموم أوجه الخير، كعثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي جهز جيش العسرة. وكثرة إنفاق عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. مما يبين أهمية المعالجة بالترغيب، وبيان أثر ذلك وعوائده على الإنسان نفسه. لتعطي دروساً عملية في منهجية المعالجة. فإذا كان الله تعالى المالك للعباد يتعامل مع عباده بهذا الأسلوب الحكيم، والناس عبيد له عَزَّ وجل، فإن حاجة العباد لهذا الأسلوب غاية في الأهمية فيما بينهم، على جميع المستويات.

ثم يخبر الله تعالى عباده بغناه عنهم، وأنهم فقراء إليه، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ ﴾ فربكم الغني عنكم، بينما ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾ أنتم الفقراء إلى ربكم، وهو الغني عنكم، وبالتالي هو الذي أغناكم، فيطلب منكم مما أعطاكم. وبالتالي كيف تبخلون، وهو الغني المغني الذي أعطاكم وأغناكم، وهو الذي يُخلف عليكم ما أنفقتم وأعطيتم. فإن حاجتكم إليه سبحانه وتعالى ثابتة ومقررة، ولا حاجة له فيكم. وهذا توجيه عظيم بأسلوب الإقناع المثير للحقائق. وبما يعلم العباد كيف يتعلمون، وكيف يعلمون، وكيف يعملون، وكيف ينقلون المتعلم والمتربي من جهله إلى مواطن المعرفة، من خلال إثارة الحقائق، وإيصالها للذهن والفكر بأحسن الأساليب. مما يبين أن منهج الله تعالى قائم في الإقناع على إثارة الفكر للحقائق، وليس بالإلزام من غير تعليم وإثارة النفس نحو القناعة بما تقوم به، وتسلكه. ليكون درساً في عملية التوجيه، بأن تكون قائمة على الإقناع وفق الحقائق.

ثم يحفز ويرغب عباده بكمال قدرته عَزَّ وجل على الاقصاء والاستبعاد والاستعاضة عنهم بغيرهم، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ فإن تتولوا عما يأمركم به ربكم تبارك وتعالى بعد هذه الحقائق، وتُعرضوا عن هذا الإرشاد الحكيم، فإنه يستعيض عنكم بغيركم ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ فلا يكونوا أشباهكم في البخل، بل يكونوا أمثل وأطوع منكم، سمعاً واستجابة وامتثالاً. فلا يكونوا مثلكم في التولي، بل أطوع وأفضل منكم. بما يفيد كمال قدرته سبحانه وتعالى على الاستبدال، وتفيد كذلك أن ربكم اصطفاكم على غيركم، فإن لم تُراعوا هذا الاصطفاء، وهذه النعمة العظيمة بالاستجابة لربكم، فإنه يعدل عنكم إلى غيركم، فيكونوا خيراً وأحسن منكم. فواجبكم إذاً المسارعة إلى الامتثال لربكم، وشكره على هذا الاصطفاء. فإنها نعمة جليلة وعظيمة. وفي هذا عتاب لهم، من خلال استثارة مواطن استشعار النعمة والإنعام

التي يجب أن لا يقابلوها إلا بأحسن ما يكون. ولذلك تفاعل واستجاب الصحابة رضي الله عنهم لكل ما جاء به رسولهم من عند ربهم، فكانوا خير الأصحاب، وخير الأجيال، فتسابقوا إلى طاعة الله تعالى، وإلى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفدوه بأموالهم، وبكل ما يملكون حتى بأنفسهم، كما تبين ذلك من سيرتهم العطرة. فالحمد لله على نعمة القرآن وتوجيهاته العظيمة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته الكرام. وبهذه التوجيهات العظيمة تم ولله الحمد الانتهاء من سورة محمد.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة محمد. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.